دليل الحيـاة الجميلـة

عبد الله الطوخـي

دليل الحياة الجميلة

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشاب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

دليل الحياة الجميلة

عبد الله الطوخى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

دليـل الحيـاة الجميلـة

[١]

رقصــــــة الظـــــــل

قال لنفسه وهو يسير الهوينا بحفيدته الصغيرة على الكورنيش :

لو لم يعد لى من فائدة فى هذا العالم غير أن أسلى هذه الطفلة وأبهجها ، لامتلأت بالرضا واكتفيت . فما عاد لى من مطلب فى الحياة بعد كل هذا العمر ، غير السماح لى بالبقاء على هذا الشاطىء .. شاطىء الحياة ، وتأمل الأحداث والأشياء على إيقاع أمواج البحر !

كان اليوم الأخير لهم فى الإسكندرية .. صحا من النوم مبكراً جداً ، بينما كل من فى البيت لا يزال مستغرقاً فى نوم عميق ، شرب شايه وفتح الباب فى هدوء ليخرج إلى جولته الصباحية بحذاء الشاطىء .. يريد اليوم أن يشبع من البحر .. يملأ عينيه وقلبه ورئتيه حتى يعود إليه فى الصيف القادم .. « هذا لو فى العمر بقية » .. وإذا بصوتها يأتيه حاملاً كل الفرح وكل الرجاء :

– جدو .. خذنى معك يا جدو .

أحس بجرس صوتها يخرجه من بئر الوحدة ، وتأملاتها إلى فضائيات الحياة ومواكبها المنعشة ، تهلل لمرأى وجهها الصبوح بتلك الحسنة الكبيرة ، أقرب ما تكون إلى الشامة أعلى خدها الأيمن ، ضم وجهها الطازج وخصلات شعرها الطويل الأسود الناعم بين كفيه وخاطبها همساً وهو يقبلها من جبينها : ما الذى أيقظك هكذا مبكراً ؟!

مطت شفتيها الوردتين : لا أعرف . أحسست بك صاحياً فجئت جرياً إليك ، هل تأخذنى معك ؟!

هز رأسه موافقاً برضا . دب الفرح فى أوصالها ، شكرا يا جدو .. شكراً .. ودخلت فى حضنه كقطة صغيرة تتمسح فى صدر حنون .

فلترتدى إذن ملابس الخروج حتى أعد لك كوب الشاى باللبن .. (ثم متذكراً) ولكن ماذا حين تصحو « مامتك » ولا تجدك ؟!

قالت ببساطة : ستفكر طبعاً أنى خرجت معك يا جدو .

– لكنك لم تأخذى الإذن منها .. هذا هو اتفاقكما !

– لكنك جدى يا جدو .. وأنت باباها .. وأنا أخذت منك الإذن !

– ولو .. لابد من أن تستأذنيها .. وفى نفس الوقت لا يصح أن توقظيها .. فما العمل ؟!

بدت فى عينيها الحيرة والتفكير .

– كما ترى حضرتك .

الحل لديه جاهز . لكنه تظاهر ببعض التفكير ثم قال :

– نترك لها ورقة . وأنت التى تكتبينها . (وقدم لها ورقة وقلماً)

سأملي عليك (ومحذراً بلطف) لا أحب أن تخطئى فى الكتابة ، لو أخطأت سأجعلك تعيدينها من جديد .. وهكذا نتأخر على الخروج .. هيا اكتبى .. ووضحى الخط .. واتركى مسافة بين الكلمات .. وأخذ يملى عليها .. كلمة كلمة .. وعلى مهل .

لا تواتيه فرصة لكى يدربها على شىء مفيد طيب إلا ويفعله بسعادة ورضا .

- ماما الحبيبة خرجت مع جدو .. لنتمشى قليلاً على الكورنيش ونشم هواء البحر الجميل .

حين انتهت من الكتابة ، عرضت عليه الورقة .

- برافو .. لا أخطاء .. هيا إذن نخرج .

وضع الورقة فى مكان واضح وخرجا فى هدوء .

لعبتهما المفضلة فى تلك النزهة الصباحية أن يرفعها ويوقفها على سطح سور الكورنيش ، ثم يتركها لتسير وحدها .. حرة مستقلة .. عيناه عليها دون أن يشعرها بخوفه عليها .. مؤكداً ثقته بقدرتها .. واعتمادها الكامل على نفسها .

- برافو .. أجمل ما فى مشيتك هذه أنك تعرفين كيف تحافظين على توازنك !

بعد بضع خطوات توقفت وسألته ماذا تعنى .. توازنى ؟!

ابتسم في نفسه ، حين ألقى عليها بالكملة .. كلمة التوازن ، كان يعلم أن الكلمة جديدة وغريبة عليها ، ولسوف بالتأكيد تسأله عن معناها .. تلك فى الحقيقة واحدة من أجمل لعباته وتدريباته معها ، والتي يحلو له ، خاصة فى لحظات مثل هذه فى حضن الطبيعة أن يؤلفها ليحرك بها فضولها وشهيتها للمعرفة .. معرفة العالم من خلال دنيا الكلمات .. وإن بعض الكلمات لتبدو واضحة له وضوح ماء الغدير ، ولكن البعض الآخر تبدو كالدهاليز التى يتوه فيها الإنسان قبل أن يكتشفها ويعرف أسرارها .. وجميلة تلك العبارة التى قالها ذات يوم أحد الفلاسفة : « المعرفة كنوز مفاتيحها الأسئلة » ... أجل الأسئلة .. هى تسأل .. وهو يجيب .. وأحياناً يكون عارفاً بالجواب ، وأحياناً يدعوه السؤال لأن يسأل نفسه ويسأل الكتب والقواميس .. ويسأل الآخرين .

الآن .. كيف يشرح لها ، هى التى لم تتجاوز السابعة من عمرها ، معنى كلمة « توازن » .. وإن المعنى لفى غاية الوضوح بالنسبة له ، لكن التعبير هو المشكلة .. هو دائماً معها مطالب بلغة بسيطة يتوحد فيها الشيخ العجوز مع الطفل الصغير .. وفكر : إنه لمشروع قومى جليل أن نكتب قاموساً للأطفال يعرفهم معانى الكلمات الهامة والأساسية فى الحياة .. ولن يكون التعريف فقط بالكلمات ، بل أيضا بالصور والرسوم .. كيف يمكن تعريف وتصوير « التوازن » للأطفال ؟

تلقائياً ارتسمت أمامه صورة لاعب السيرك الذى يمشى بحذر على سلك دقيق مرتفع ، ممسكاً بعصا بين يديه ، وتذكر أنه لحسن الحظ اصطحبها ذات مرة إلى سيرك القاهرة حيث قضيا سهرة جميلة ظلت حديثهما لفترة .

– أتذكرين زيارتنا معا للسيرك ؟! أتذكرين الرجل الذى كان يسير على سلك رفيع جداً ، وعالٍ جداً ، وكنا خائفين جداً عليه من السقوط ، لكنه لم يسقط ، أتعرفين لماذا لم يسقط ؟! لأنه استطاع أن يحافظ على « توازنه » لم يمل يميناً ولا يساراً .. كل تركيزه كان فى حركة قدميه .. كذلك كان يمسك بين يديه عصا ساعدته على ألا يميل إلى هنا أو إلى هناك .. لم يسرح فى أى شىء ما عدا المحافظة على توازن حركة قدميه مع سائر بقية جسمه ، وبهذا نجح فى السير على السلك ولم يسقط .

كان يشرح لها وهى لا تزال واقفة على سطح سور الكورنيش .. ناظرة ومستمعة إليه باستغراق .. ولأنه يدرك جيداً سرعة ملل الأطفال من الأشياء ، فقد خشى من حديثه عن التوازن أن يفقدها فجأة توازنها فى وقفتها على السور .. كما رأى فى عينيها أن ينهى الكلام ويهبط بها إلى الأرض .. أنزلها .. واصلاً السير على الكورنيش .. ممسكاً جيداً بيدها : « ترى .. هل أوصلت إليها المعنى ؟ ليس بالضرورة بالكامل .. حسبى أن أحرك عقلها وخيالها فى الاتجاه

الصحيح .. والمعرفة كالأشجار تبدأ بذوراً ثم تنمو مع الأيام .. أجل .. وبعد فترة لو قدر لى المزيد من العمر ، سأحدثها عن التوازن فى الحياة وفى العيش بشكل عام ، التوازن بين مطالب الجسد وتشوقات الروح .. ذلك التوازن الذى ما زلت أنا شخصياً مهموماً به حتى الآن !!

أحس بها تجذبه للدخول من إحدى الفتحات فى السور إلى الشاطىء الرملى ، تجاوب مع رغبتها .. أخلى يده من يدها وتركها تجرى طليقة على الرمل .. وحلا له أن يسرع الخطى فى اتجاهها ، لكنه أحس بصعوبة المشى السريع على الرمل ، بل وبأنفاسه تتدافع بعض الشىء .. تذكر متاعب القلب التى باتت تناوشه بين الحين والآخر .. تمهل .. ثم توقف تماماً وقد أعطى وجهه للبحر ، استرعته حركة الموج .. هل الأمواج تتلاطم أم ترقص ؟! غريب ألا تزايله الدهشة والشعور بالإجلال كلما رآه رغم اعتياده عليه كل صيف لعشرات السنين ، عفى دائماً ولا نهائى .. أبداً لا يشيخ .. وفى كل مرة أجده أكثر قوة وجبروتاً بينما الزمن هو الذى يشيخ .. وهاهى شيوختى تتزامن مع شيخوخة قرن من الزمان .. لم يبق غير عامين نين وأشهد - لو عشت - مع العالم كله مولد قرن جديد .. القرن لواحد والعشرين .. ووداعاً حينذاك لمن كان ملء البصر والقلب والنوازع والضمير .. وداعاً بكل ما كان فيه .. ولكن هل الزمن حقاً يشيخ ؟! أم أن الأشياء والبشر هم وحدهم الذين يشيخون ؟! أجل ..

نحن فقط الذين نشيخ .. نستهلك .. نعتصر .. ثم نمضى بعد أن تكون الحياة قد استقدمت منا الجديد .. حتى الذين ماتوا .. عبر القرون الغابرة ، ليسوا جميعاً موتى .. بل منهم الباقون .. باقون بكلماتهم .. بمخترعاتهم .. بشجاعتهم وثوريتهم التى فجرت قدرات الشعوب وجددت روح الأجيال .. بحر هو الزمن .. والأجيال المتعاقبة هى أمواجه !!

واستقرت عيناه على الطفلة وقد رآها قادمة فى اتجاهه .. ولاحظ خلفها قرص الشمس البازغ منذ قليل من جهة الشرق ، فبدت وهى مقبلة كطيف مغمور بالضياء .. فجأة إذا بها تتوقف وتنظر أمامها على الرمل .. لحظات وأشارت إليه منادية ومستثارة .

– جدو .. جدو .

اقترب منها .. كانت لا تزال تنظر أمامها محملقة فى الرمل .. تخطو خطوتين ثم تتوقف وتعاود النظر وحين اقترب مها سألته :

– شايف يا جدو .. (وأشارت على ظلها المديد على الرمل .. كانت مندهشة ومستثارة لذلك الشكل الأسود الذى يخرج من قدميها ويتحرك مع حركتها على الرمل) .

– ما هذا يا جدو ؟!

– هذا .. هو ظلك .

- وما معنى ظل ؟!

فوجيء هذه المرة بالسؤال حتى أنه أخذ وضع الاستعداد والانتباه .. آه .. (وابتسم لها ابتسامة كبيرة يكسب بها وقتاً) .. هاهى تدخله فى امتحان جديد .. كيف يشرح لها ماذا يعنى الظل ؟! كيف ؟!

وتلقائياً ، وبسرعة الومض ، دار فى ذهنه شريط من ذكرياته المتعلقة بكلمة الظل وشكله : وهو صغير فى القرية كان كثيراً ما يجرى فى الصباح الباكر ليسبق ظله الطويل الممتد أمامه ، أو ليقفز من فوقه .. لكن الظل هو الظل .. دائماً أمامه .. يسبقه .. أو يتبعه !! كما برق الشريط بإحدى آيات الخلق الإلهى المذكورة فى القرآن الكريم ، والتى شاغلت خياله أيام الصبا وحفظها عن ظهر قلب :

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً » .. كذلك عنوان إحدى الروايات الشهيرة التى كتبها « فتحى غانم » فى الستينيات ، هى « الرجل الذى فقد ظله » .. وياما سأل نفسه وهو يتجول مع شخصيات الرواية : كيف يفقد الإنسان ظله ؟! إن الكتاب بالطبع يقصد المعنى الرمزى .. ولكن أى رمز يقصد ؟! إن التوجه الفكرى العام للرواية ليوحى بأن فقدان الظل هو نقيصة كبرى .. أن يتجرد الإنسان من ظله كما لو أنه يتجرد من شرفه .. ومن دليل قوته وإنسانيته .. حين يصبح مخترقاً من كل الاتجاهات .. كما لو أن

مادته من زجاج تخترقه الأشعة بلا أى عائق ودون أدنى تحفظ أو حساب لحرمات !

ما للطفلة وكل هذا .. حسبها شىء من التفسير : لماذا يصبح للإنسان ظل يرافقه ويضفى على وجوده هالة غامضة من سحر وخيال ! فليبدأ من الواقع وعلى الطبيعة .. وليجعل من الشمس دليلاً .. وهاهو قرصها الذهبى المضىء قد صعد كثيراً على صدر السماء .

من أين يبدأ ؟!

كانا واقفين وجهاً لوجه .. وحرص أن تكون المسافة بينهما كافية لامتداد ظلهما .

قال لها : المسألة فى غاية البساطة (وأشار على ظلها) هذا هو ظلك .. أليس كذلك ؟!

- نعم .. ظلى .

- وأنا .. أين ظلى ؟! أم ليس لى ظل ؟!

- لك ظل طبعاً .. هاهو .. (وأشارت على ظله الممتد خلفه) .

- لكنى لا أراه .

- لأنه وراءك .

- عظيم .. الآن أنا أسألك سؤالاً : لماذا ظلك أمامك .. ولماذا ظلى ورائى ؟!

- لا أعرف .

- ولكنك .. يمكن أن تعرفى .. بمنتهى البساطة .

- كيف ؟!

- استديرى واجعلى وجهك للشمس .

كان القرص الوليد قد صعد فى الفضاء بعض الشىء .. استدارت ناظرة إليه .. سألها فى الحال .

- هل ظلك لا يزال أمامك ؟!

- لا .. لم يعد لى ظل .

- بل ظلك ما يزال .. ولكنه الآن خلفك .

- كيف ؟! لماذا ؟! وعادت فاستدارت إليه عاطية ظهرها للشمس .

وبدا عليها السرور إنها عادت إلى ظلها ، أو أن ظلها عاد إليها .

ما أطرفها من لعبة على شاطىء البحر .. قالها لنفسه .. ثم اطبها .. محركاً نزعتها المحبة للضحك والمرح :

لعبة جميلة .. أليس كذلك ؟! لعبة الإنسان وظله .. انظرى لظلى .

واستدار عن الشمس فانتقل أمامه .. وقف بجوارها .. تجاور الظلان .. ظله يكاد يكون ضعف ظلها .. التصق بها .. التصق الظلان .. عاد فابتعد عنها قليلاً .. فابتعد الظلان ..

- افردى ذراعيك .. هكذا إلى الجانبين .

انفردت أذرعهما .. وبالتالى انفردت أذرع ظليهما .. وإذ رأى السعادة فى عينيها .. تحمس لأن يزيدها منها .. مضى يتماوج بظله المفرود الذراعين فى شكل رقصة .. اتسعت عيناها دهشة وفرحاً .. أنت ترقص يا جدو ؟!

ماضياً بحماس أكثر مع تماوج ظله : لم لا .. هيا ارقصى مع ظلك أنت الأخرى .

أخذتها النشوة .. صاحت وقد انخرطت فى الرقص بصحبة ظلها .. وظله .

- ما أجملها رقصة يا جدو .. رقصك جميل جداً .

- آه .. الرقص الحقيقى كان أيام الشباب .. (قالها وهو يتماوج بالسرعة البطيئة .. حاسباً قدرة القلب على احتمال الحركة) .

- أنت شاب يا جدو .. شكلك جميل جداً وأنت ترقص .. تصاعد فى قلبه الطرب .. قال لنفسه وقد أنعشته كلماتها : مؤكد هى صادقة .. فلأرى نفسى بمثل ما ترانى هى .. عارفاً بكل شىء قادراً على كل شىء .. قادراً حتى على أن أشفى قلبى بالفرح وبالرقص مع طفلة وظلها .

وأخذته الحمية .. وانخرط معها في الرقص .. في ضوء الشمس .. فوق الرمال الندية .

- أتعرفين ما الذى أتمناه الآن ؟!

- (دون أن تتوقف عن الرقص) ماذا يا جدو ؟!

- كاميرا تصورنا الآن ونحن نرقص .. أنا وأنت .. مع ظلينا .. فوق الرمل .. على إيقاع الموج .. أحس بالبحر يرقص معنا .

ولوح بكل ذراعه للبحر فلوحت مثله : وداعاً أيها البحر .. حتى نعود إليك فى الصيف القادم .

[٢]

عمـــر الأشيـــاء

ويبدو أن رقصة الشيخ مع حفيدته على شاطىء البحر كانت نوعاً من الكفاح ضد إحساسه الطاغى بزحف الزمن ، ذلك الزحف المزدوج والمتمثل فى تزامن شيخوخته مع شيخوخة قرن ، كلاهما الآن فى غروب العمر .. بدا هذا الشعور وقد أصبح مسيطراً عليه لا يبارحه ، بل أخذ يزداد عليه ثقلاً وضغطاً يوماً بعد يوم ، حتى مضى - بنوع من الروع - يبحث فيه عن ثمة وجه للأمل ، تأكيداً لصدق قضيته التى اشتهر بها بين الأصدقاء والصديقات : التفاؤل حتى لقد أطلق عليه أحدهم : المتفائل العالمى !

بدافع هذا الشعور الدرامى الحامل طعم الشجن ، دخل الشرفة الشرقية الواسعة التى تفتح عليها حجرته فى شقتهم بالقاهرة ، والتى يحلو له أحياناً أن يسميها تجاوزاً : حديقة النباتات .. لما فيها من مجموعة أشجار مختارة ومنتقاة استطاع أن يكونها بحب وصبر مع الأيام .. دخل ممتلئاً بشوق خاص لرؤية هذه الشجرة الصغيرة التى زرعها هو بيديه فى الشتاء الماضى ، قبل أن يسافر إلى الإسكندرية بأشهر قليلة .. ولهذا فهى لم تصبح شجرة بعد .. بل ما تزال نبتة فى مرحلة مد الجذور والتمكن من أعماق التربة ، انحنى عليها يود لو يضمها بين كفيه .. لكنها لا تزال صغيرة لا تحتمل ، فراح يمسح على أوراقها الناعمة المستطيلة ذات النهايات المدببة والحادة كأطراف الأبر .. بحنان ورقة .

- آه .. متى تصبحين شجرة شامخة وفاتنة مثل أمك التى (وارتسمت على شفتيه ابتسامة الذكرى) يا لها من قصة .. قصتى مع أمك .. تكاد تشبه قصتى مع زوجتى .. تلك التى وقعت فى هواها من أول نظرة .. ولحظتها قلت لنفسى : لو تكون هذه البنت لى .. ونهضت خلفها ... وأصبحت لى ! هو تقريباً ما حدث لى مع أمك يا صغيرتى .. كنت سائراً فى الطريق إلى البيت حين وقع بصرى عليها .. توقفت : يا للجمال ويا للرشاقة ، وهى واقفة بقوامها الفاتن المنتسب إلى قامات النخيل ، محاطة بأوراقها الطويلة المدببة كسهام مصقولة خارجة منها إلى جميع الجهات ، أشبه بالأشعة الصادرة عن قرص الشمس آتون .. شمس أخناتون .. واقفة فوق عربة خشبية ذات عجلتين يقودها حمار .. يعرضها صاحبها للبيع وحولها أنواع أخرى من النباتات والزهور .. تسمرت عليها عيناى وقلت فى نفسى : هذه الشجرة ستكون لى مهما كان ثمنها !

وإذ أحب الرجل حبى لها ، مضى يحدثنى عنها ونحن فى الطريق بها إلى بيتى بفرح وحماس .. سعيداً بأنها ستذهب لمن يستحقها .. وأحببت اسمها : « اليوكا » .. كما عرفت أنها هولندية الأصل .. جىء بها إلى مصر من زمن .. غالباً عصر الخديو إسماعيل ، وتأقلمت مع الأيام على الجو المصرى ، والتربة المصرية .. حتى أصبح لها تاريخ وأجيال أنت أحدثها ! وما زلت أذكر حين أشار

عليك البستانى يومها ، وكنت لا تزالين مجرد فرع صغير نابت ومطل على الدنيا من جذع أمك ، وقال لى : يمكنك أن تستولد من هذا الفرع شجرة .. تنتظر حتى شهر فبراير .. تقطعه .. ثم تغرسه فى طينة جيدة ! وظللت أنتظر فبراير هذا وأتعجله حتى جاء ، وذات ضحى فى يوم دافىء مشمس فعلتها .. كجراح ماهر أجريت العملية .. أجريتها بسرعة خاطفة لأجنبك أى ألم ، وبسكين مسنون جيداً فصلتك عن الجذع وعلى الفور غرستك في تربة عظيمة سخية جهزتها لاحتضانك .. ثم رحت أتابعك يوماً بعد يوم .. بل ساعة بعد ساعة ، مشفقا ألا تستطيعى الحياة وحيدة بدون أمك ! ها قد مر الشتاء وجاء الصيف وأنت واقفة وحدك صامدة .. الأمر الذى يؤكد أنك كونت لنفسك الجذور التى تمكنك من التربة وضمنت لك الثبات والرسوخ . وها هى أوراقك الصغيرة قد اكتسبت استطالة أكبر وخضرة ونضرة أعمق وأوفر ، والأروع أن ثمة جذعاً صار يتكون لك ويتخلق ، وحالماً سيشتد ويلتف ويتصاعد بك مانحاً إياك قامة رشيقة ومتينة .. إرثاً من أمك ، تفخرين بها وأنت تدخلين القرن الواحد والعشرين !

وخطرت له فكرة انفرجت لها أساريره : إنها لحفيدة جديدة تدخل حياتى وتنضم إلى أحفادى الآخرين البشريين ، وأولهم تلك العزيزة التى ألهمتنى وأمتعتنى برقصة الظلال التى لا تنسى على شاطىء البحر .

وغمر الفرح قلبه : لئن كنت أنا إلى غروب ، فإنى أقدم للزمن القادم مواليد جديدة .. كائنات تحمل كل بكارة وطزاجة الحياة .. وجميل أن تكون هذه الشجرة الصغيرة هى هديتى الرمزية للعالم ليلة عيد رأس القرن الواحد والعشرين .. آه .. يا لها من ليلة عالمية ستكون : كرنفالات فرح صاخبة ، أم جنازات ومسيرات شموع ودموع صامتة ! فخار وزهو بما أنجزه الإنسان من روائع ومدهشات ، أم خجل مما أقترفه من جرائم ومذابح وامتهانات لإنسانية البشر !! ورأى بشراً ينطلقون إلى الكواكب والنجوم ، وآخرين ما زالوا يتشبثون بالعيش داخل حفريات قرون الجهل والظلام .

وندت عنه تنهدة : مع كل هذا جميل أن أقدم للعالم وللقرن الجديد شجرة من زرع يدى ، عالمية التكوين . كم عمرها سيكون حينذاك ؟! فلأسجل من الآن تاريخ ميلادها .. اليوم الذى غرستها فيه .. ليكون دليلاً ومرشداً على عمرها .. لمن يهمه الأمر .

وتحمس للفكرة ، وعلى الفور شرع فى تنفيذها .. كتابة على جدار الآنية التى تنهض فيها .. بخط نسخ ، وحبر أخضر : ١ فبراير ١٩٩٨ .. وإذن سيكون عمرها مع حلول أول القرن عامين .. هو عمر الصبا الغض فى عالم الأشجار !!

وإذ نهض واقفاً يتأمل منظرها بعد كتابة التاريخ ، حانت منه نظرة إلى أمها - اليوكا الكبيرة - بدا له أنها تنظر إليه ساخرة عاتبة :

أو أنت بالذات تكون هذه هي نظرتك للأمور ؟! من قال إن عمرها عامان اثنان فقط ؟! أنسيت أنها فى الأصل قطعة منى .. حقيقة لا مجازا .. فعلاً لا رمزاً .. أنسجتها أنسجتى .. خلاياها خلاياى .. چيناتها چيناتى .. إننى بكلى أعيش فيها يا صاح .. أتجدد بها .. ولسوف أستمر حتى بعد أن أذبل وأجف من خلالها .. كم هى مضللة يا صديقى حكاية العمر هذه .. فما الحياة إلا أجيال تتواصل وتتوالد من بعضها البعض .. وأنت .. بحسك المأساوى بدورة الزمن .. تنسى أنك ستظل تعيش فى القرن القادم ، ليس فقط بما سبق أن أنجزت من طيبات الأعمال ، بل أيضا من خلال أحبائك وأحفادك الصغار .. ستعيش فيهم .. وتتجدد بهم .

وإذا به يفيق فجأة على صوت الصغيرة الواقفة خلفه .. ترقب ما يفعل بهدوء .

– ما هذه الكتابة يا جدو .. (وراحت تردد لنفسها) ١ فبراير ١٩٩٨ .. ماذا يعنى هذا التاريخ يا جدو ؟!

آه يا صغيرتى .. يا امتدادى .. يا عمرى المتجدد رغم شيخوختى .. إنك لتنعشين روحى .. بهذه الامتحانات التى تدخليننى فيها دوماً بأسئلتك البسيطة والصعبة فى آن .. وكما حاولت أن أشرح لك من أين يأتى الظل ، وما معنى التوازن فى الحياة ، سوف أحاول الآن أن أشرح لك ماذا يعنى تسجيل تاريخ ميلاد شجرة .. هى قضية

فى عمقها فلسفية ومتعددة الأبعاد .. هى مرة قضية وحدة الوجود . ومرة أخرى هى قضية الزمن وعمر الأشياء .. الزمن صديقاً والزمن عدواً .. الزمن الذى يتغذى على الكائنات ويستولدها ويجددها فى آن .. كيف أشرح لك ؟! فلتكن البساطة مدخلى كالعادة .. مجرد تفتيح المعانى .. تحريك العقل على منظور أو منهج جديد فى فهم العالم .

- شوفى يا ستى .. أنت .. حين ولدت ألم نسجل تاريخ يوم ميلادك ؟! اليوم الذى نحتفل به كل عام ؟! (هزت رأسها موافقة) كذلك هذه الشجرة لها تاريخ ميلاد .. هو اليوم الذى قطعتها فيه من أمها وهى ما تزال فرعاً صغيراً جداً ، وزرعته في هذا الإناء . انظرى . كيف أصبح شجرة صغيرة ستكبر وتنمو مع الأيام ، ولأنها جميلة كما ترين ، فقد أحببت أن أسجل تاريخ يوم زرعها .. كى أحتفل بعيد ميلادها كل عام .

اتسعت عيناها بالدهشة والحبور : تحتفل بعيد ميلاد شجرة ؟!

- طبعاً .. لم لا ؟! أليس من الواجب أن نحتفل بكل الأشياء الجميلة والمفيدة فى الحياة ؟! إننا لو نظرنا حولنا .. سنجد أن بعض الأشجار أكثر جمالاً وفائدة من بعض الناس .. هؤلاء الذين يخلون من الذوق فيلقون بالقمامات الكريهة على رؤوس الشوارع ويفسدون الهواء بما ينشرون فيه من دخان ونفايات تضر بصحة الناس وقد

تسبب في قتلهم بينما الأشجار الطيبة ماذا تفعل ؟! تعمل على تنقية وتطهير الهواء الذي يتنفسه الإنسان .. ليس الإنسان وحده بل الحيوان أيضا والطيور .. من سموم اسمها ثاني أكسيد الكربون ومدهم بالأوكسجين الذي هو أهم وأعظم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .. ستعلمين ذلك جيداً حين تدخلين المرحلة الإعدادية في المدرسة ، كما ستعرفين أيضا حقيقة أخرى في منتهى الأهمية .. وهي أن الله خلق النبات قبل أن يخلق الإنسان .. ذلك أن النبات يمكنه الاستغناء عن الإنسان .. أما الإنسان فيعتمد في حياته وفي غذائه على النبات .. (وتذكر ما يسمى بالدورة الغذائية في الطبيعة حيث النبات يتغذى من الأرض ، والإنسان يتغذى على النبات ، وفي النهاية تتغذى الأرض بالإنسان بعد أن يموت ويتحلل إلى مواد تخصب التربة) إلا أنه أشفق من أن تسرح منه لصعوبة الموضوع .. وواصل مجاهداً في البساطة بقدر الإمكان .. فهل كثير بعد هذا أن يحتفل الإنسان بعيد ميلاد شجرة ؟!

– وكيف يحتفل بها ؟! كيف يكون الاحتفال بشجرة ؟!

ارتبك مبتسما لفرط بساطة السؤال وصعوبته في نفس الوقت ، ورأى عينيها مسددتين في عينيه .. يطل منهما الفضول والشغف ، وقد لاقى الأمر هوى في نفسها .. تريد أن تصدق بالفعل حكاية الاحتفال

بعيد ميلاد شجرة .. اندفع قائلاً لنفسه أكثر مما يقول لها : يا صديقتى .. إننى دائم الاحتفال بكل شىء أراه جميلاً ونافعاً فى الحياة ، إننى أحتفل بشروق الشمس كل صباح وهى تغمر العالم بالضياء .. أحتفل بالبحر العظيم وهو يضحك ونحن نسبح على أمواجه ، أو نسير ونلعب ونرقص على شاطئه .. أحتفل بالنسيم المنعش أيام الحر القائظ ، وبالهواء الدافىء أيام البرد القارس .. أحتفل بكل إنسان يحقق نجاحاً كبيراً ، أو يقدم اكتشافاً جديداً يسهل على الناس حياتهم .. أحتفل بالمريض حين يشفى .. وبالعارى حين يكتسى ، وباليتيم حين يجد العطف والمأوى .. أحتفل بكل حديقة جديدة تنشأ فى مدينتنا أو فى أى مكان فى العالم ، وأتمنى لو أزرع فيها شجرة .. أحتفل بكل إنسان يزرع أمام بيته أو كوخه شجرة .. فكيف لا أحتفل بعيد ميلاد شجرة أنا زارعها ؟!

قالت الصغيرة مبهورة ومأخوذة بحماسه : وأنا أيضاً يا جدو .. أريد أن أزرع شجرة .. هل يمكن ؟

– طبعاً ممكن جداً .. ما أسهل ذلك ؟ تأججت فرحتها : الآن .. هل يمكن أن أزرعها الآن ؟!

– الآن الآن لا .. فللزراعة أوقات ومواسم .. وأحسن الأوقات هو فصل الشتاء .. وأنسب الشهور هو شهر فبراير .. فلتنتظرى كما انتظرت أنا قبل أن أزرع هذه الشجرة .. (وأشار على فرع صغير

نابـت فـى جـذع « اليـوكا » الكبـيـرة هـذا الفـرع هو الذى ستقطعينه .. ثم تزرعينه .. وبعد ذلك تصبحين أنت المسئولة عنها .. تروينها وتحافظين عليها .. فهى شجرتك !

- وأحتفل بعيد ميلادها .. أليس كذلك ؟!

- طبعاً .. مثلما سأحتفل بعيد ميلاد شجرتى .. وما رأيك أن نحتفل بعيد ميلاد الشجرتين معاً .

- فكرة جميلة .. جميلة جداً (وتطلعت إليه بحب شديد) كم أنت جميل يا جدو .. أنا أحبك كثيراً كثيراً يا جدو .. (وكقطة صغيرة أليفة دخلت فى صدره) .

- وأنا أحبك أكثر بكثير .. يا صديقتى العزيزة .

أحس بثمة قوة أو تيار منعش يسرى فى كل عروقه وينتشر فى أرجائه وقال لنفسه : إننى لأحس بها سماداً سحرياً يخصب روحى وبدنى ويمدهما بالنشاط والحيوية .. وعاودته تلك الفكرة الدرامية عن تزامن شيخوخته مع شيخوخة القرن العشرين ، هز رأسه طارداً الفكرة بثقة وقوة : لا أحس على الإطلاق بما يقال عن الشيخوخة .. فها أنا أفعل أجمل وأعظم ما يمكن أن يفعله الإنسان فى الحياة : مصادقة الأطفال وزراعة الأشجار .. أضع الأساس لأهم عنصرين تقوم عليهما الحياة .

لم تأت بعد مرحلة شيخوختى .. كذلك الزمن ، من قال إن للزمن شيخوخة .. إن هى إلا تقسيمات ومحطات من صنع الإنسان يتغلب بها على إحساسه المروع بالمتاهة الكبرى داخل هذا المحيط الكونى الشاسع اللانهائى ! عامان اثنان يا صديقتى ونصل مع العالم إلى محطة سنة ٢٠٠٠ يا لها مِن ليلة ستكون .. ليلة رأس القرن الواحد والعشرين ، حيث سيتلاقى فيها البشر أجمعين .. رغم كل الفوارق والخلافات والصراعات والدرامات ، يتلاقون فى إحساس واحد .. أنهم ينتمون إلى دنيا واحدة .. كون واحد .. خالق واحد .. وسؤال واحد .. ماذا فعلتم بمنحة وجودكم فى هذه الحياة .. وماذا ستفعلون للزمن القادم ؟

كما ستكون ليلة احتفال ، ستكون أيضاً ليلة حساب .

إنه لجميل أن نحضر تلك الليلة .. ومع كل منا شجرته .. هديتنا الرمزية للقرن الواحد والعشرين ..

[٣]

الكنـــارى سجينـــا

من مباهج حياة صاحبنا الشيخ ، أن الشرفة التى تفتح حجرته عليها ، والتي يسميها حديقة النباتات تطل - وياللحظ السعيد - على منظر فريد يكاد يلخص روح مصر كلها : نهر النيل والضفتين وهضبة الصحراء الذهبية بأهراماتها الثلاثة المهيبة .. الأمر الذى غمره من اللحظة الأولى التى دخل فيها أول مرة إحساس عميق بالفرح وبالشكر الكونى العميق ، وقال مناجيا نفسه برضا يبلغ حد المرح : هاقد ازدادت ممتلكاتى فى هذا الكون .. ممتلكاتى المجانية .. كم هى نعمك سخية يا إلهى ومبهرة وعظيمة .. لكن معظمهم لا يدركون .

وقد لاحظ مع الأيام ، خاصة فى الصباح الباكر ، أن سور الشرفة يجذب بعض العصافير فتقف عليه وتتقافز وتزقزق بتنويعات من الأغاريد فتضاعفت سعادته . وخطر له أن يرد الجميل : مثلما تغنى لى كل صباح ، أقدم لها طعام الإفطار .. ولسوف تتعودنى ونصبح أصدقاء .. تصبح جزءاً من أسرتى الكونية الكبرى .. وبالفرحة حفيدتى الصغيرة حين تفاجأ بمشهد العصافير وهى تأكل وتمرح فى الشرفة !

ولأنه ابن الطبيعة من المنشأ وريفى أصيل ، فقد نفذ الفكرة بنجاح واستجابت له العصافير .. وصارت هذه عادته التى يبدأ بها يومه كل صباح ، بعد أن يستيقظ من نومه مباشرة وقبل أن يغسل وجهه أو يشرب شايه .. وأحياناً يضع لها الطعام فى الليل قبل أن ينام لتصحو فتجد إفطارها جاهزاً فتتهلل وتقبل عليه بفرح عظيم ..

وحينذاك كان يجلس خلف زجاج الشرفة المغلق ليعطيها الأمان والطمأنينة ، وكوب الشاي في يده ، يشربها على مهل ويتأمل حركتها الرشيقة الفرحانة .. وكثيراً ما كان يهرع متحمساً وينادى على الصغيرة إن كانت مستيقظة لترى المنظر وتشاركه الفرحة .. ثم بعد ذلك أصبحت هى التى تجرى إليه بفرح لتنبهه أن احتفالية العصافير الصباحية قد بدأت !

وفى البدء كان يطعم العصافير بفتات لباب الخبز الذى يشتريه لطعامه هو والأسرة ، إلى أن اكتشف بالصدفة ذات مرة وهو عائد بالتاكسى إلى بيته محلاً صغيراً افتتح حديثاً تعلوه لافتة مكتوب عليها : بيت العصافير .. حينذاك أوقف التاكسي مستأذنا وهبط منه بحماس شديد .. وراق له أن يكون صاحب المحل سيدة ، واستهوته نقوش جلبابها الفرعونى ، ووجهها القمحى الباسم الدقيق الملامح والمستند على رقبة نفرتيتية طويلة بشكل واضح .. تلاقى كل ذلك مع حنينه الدائم للفرح والتفاؤل : « ها هى الحياة لا تكف عن تقديم الجديد ، بينما أنا مهموم بنهايات الأشياء .. نهاية القرن ، ونهاية العمر .. » !!

يجب أن أتخلص تماماً من شبح هذه الفكرة وأعود إلي تفاؤلى وطلاقتى .. أستعيد إيمانى بفكرة التطور والتجدد وتيار الزمن المنساب !

ما أن ألقى بالتحية للسيدة ، حتى بادرته قائلة بابتسامة مرحبة :
كنارى ؟!

وأشارت على عدة أقفاص مدلاة من السقف أو مثبتة فى الجدران ، بداخلها عصافير زاهية الألوان . تصورته راغباً فى اقتناء زوج أو اثنين منها بأقفاصها .. هز رأسه بالنفى شاكراً وآسفاً أن يرفض لهذه السيدة الأنيقة اللطيفة عرضاً ، وقال : إنما أريد طعاماً للعصافير .

قالت مواصلة ابتسامتها : إذن فعند حضرتك كنارى .

– كنارى لا .. عصافيرى عادية .. حرة .. طليقة .. عودتها أن تأتى لى كل صباح لتتناول إفطارها .. ثم تنطلق طائرة إلى حيث تشاء .. أنا مكتف بهذا وسعيد !

– آه .. إذن فأنت من أصحاب القلوب الكبيرة .. وما أسعد الكنارى الذى يكون من حظه صاحب مثلك ! ما أذكاها .. وألطفها .. وأرقها .. بائعة الكنارى هذه .

قال معتذراً بلطف : كنت أتمنى .. ولكن للأسف .. عيب الكنارى بالنسبة لى أنه فى قفص . وأنا لا أطيق أن أرى طائراً بأجنحة مسجوناً فى قفص .. فما بالك حين يكون السجين بكل هذه الرقة ، وكل هذا الجمال . (وضحك مؤكداً اعتذاره) آسف لأن نظريتى ليست فى صالح هذا البيت الجميل .. بيت العصافير .. (ونظر

فى ساعته منهياً الحديث وقد تذكر التاكسى المنتظر) تناول منها كيسين من الحبوب .. شكرها بحرارة وخرج سعيداً أنه ضمن لعصافيره ، بفضل وجود هذا المحل فى طريقه اليومى ، وليمتها المتعة كل صباح .. أجل وأرى هذه البائعة اللطيفة .. بائعة الكنارى .. والتى تكاد تشبه طيورها فى الرقة والدقة والجمال .. وربما لو توثقت معرفتنا ، قد أحكى لها سر كراهيتى العميقة ، ليس فقط لحبس الطيور ، بل فى الأساس حبس الإنسان .. « ذلك هو فى الحقيقة أصل الكراهية يا عزيزتى » .. وأغمض عينيه بينما التاكسى منطلق به إلى بيته ، رأى نفسه يعود إلى الماضى .. قابعاً أو ملقى داخل زنزانة فى أحد السجون .. تجربة حافلة وقاسية مر بها فى إحدى الفترات لعدة أعوام .. عرف قسوة ومرارة الحرمان من الحرية ، رغم أنه سجن لأنه كان يكافح من أجل تحرير وطنه وشعبه من سجن كبير .. سجن الاحتلال والاستعمار .. وخاطبها فى نفسه : ليس فقط لهذه الأسباب يا عزيزتى ، وإنما أيضاً لأنى لا أحب لحفيدتى أن تتقبل وتألف فكرة حبس الطيور .. إننى أحب أن أربيها على حب الحرية وتقديسها .. للطيور وللإنسان على السواء .

* * * * * *

إلى أن كان يوم ، وهو عائد إلى البيت بعد الظهر ، ما أن فتح باب الشقة ودخل حتى فوجىء بالصغيرة تستقبله صائحة تكاد تقفز من الفرح :

– مفاجأة يا جدو .. ستعجبك جدا .

وأمسكت بذراعه تصحبه متعجلة بلطف في اتجاه الشرفة .. ترك نفسه لها .. سعيداً بسعادتها .. غير أنه ما كاد يلج من باب الشرفة حتى فوجىء بآخر ما كان يمكن أن يخطر له على بال : قفص صغير بداخله عصفوران ملونان من نوع الكنارى .. أصابته دهشة ممزوجة بالضيق حاول أن يتحكم فيها .. وبدا له الأمر كما لو أنه مصمم ومرتب بقصد وعلى نحو ساخر .. فبعد الحديث الذى دار بينه وبين بائعة الكنارى يحدث هذا ؟! وتراءت له البائعة ، بطرحتها وجلبابها المنقوش تنظر إليه باسمة .. ملتمسة العفو .. ولكن من يدرى أن هذين العصفورين من عندها ؟!

– ما رأيك يا جدو .. أليست مفاجأة جميلة ؟!

ارتج عليه .. لا يحب أن يصدمها .. ورأى أنه على أبواب معركة كبيرة لا يعرف كيف يخوضها مع طفلة . قال بصوت هادىء . حريصاً ألا يدارى ضيقه وانقباضة روحه ..

– نعم جميلة .. العصافير ذاتها جميلة .. لكنى لا أحب أن أراها هكذا محبوسة !

بدت الدهشة فى عينيها وقالت مدافعة .. تحاول إقناعه :

– لأنهما كنارى يا جدو .. لابد أن يبقيا محبوسين .. لو خرجا من قفصهم يموتان .. أو تأكلهما الطيور الكبيرة ..

قال معترضاً على رأيها : بل سيطيران .. لو فتح الباب لهما .. إنهما كبيران بما يكفى .. تجاوزا مرحلة الطفولة .. و .. ولأن الطيران غريزة تولد بها الطيور (وقبل أن تسأله ما معنى « غريزة » أسرع يفسر لها) غريزة بمعنى أنها قدرة طبيعية تولد بها .. الطيران عندها شيء طبيعي .. مثل الأكل والشرب .. والنظر والسمع .. المهم أن تقوى الأجنحة وتشتد .. وهذان العصفوران أجنحتهما كبيرة وقوية .

– لا يا جدو .. لا .. لو أنا تركتهما يخرجان فلن أعرف إلى أين سيذهبان .. لن أضمن أنهما سيعودان لى .. هل تضمن عودتهما إلى القفص لو خرجا .

– لا بالطبع .. لا أضمن ..

– إذن كيف أتركهما يخرجان . ثم إنهما عصافيرى يا جدو .. عصافيرى أنا .. (وتدق على صدرها) ويحباننى .. فكيف أتركهما .. لا يا جدو .. لو سمحت .. ولا تغضب منى ..

وإذ رأى أنها توشك على البكاء ، بسط لها كفيه علامة الرضا وقال : لست غاضباً منك .. فهى عصافيرك وعليك أن تتحملى أنت مسئوليتها .. وليست أمك هى المسئولة عنها ..

قالت بحماس : نعم يا جدو .. أنا المسئولة .. طلب واحد أطلبه من حضرتك ..

– ما هو ؟!

- مثلما تشترى الطعام لعصافيرك .. تشترى أيضا لعصافيرى ..
وطارت من الفرح لموافقته .

هكذا وجد نفسه متقبلاً لوضع خاطىء . قال لنفسه مبرراً : ليس عدلاً أن أسقط تجربة سجنى على تجربتها مع عصافيرها الرقيقة كما أنها لا تزال أصغر من أن أناقش القضية معها على هذا المستوى .. فلأتقبل الأمر برضا . وقد أألف الوضع وأتعوده مثلما نتعود على رؤية ومعايشة أخطاء كثيرة فى حياتنا مفروضة علينا .. نعتادها بما فيها من قبح أو ظلم دونما أدنى إحساس بالضيق أو بالذنب!

وبالفعل .. يوما بعد يوم ، صار المنظر عادياً جداً فى الشرفة بما فيه من تناقض صارخ : طيور حرة تروح وتجىء فى فرح وسعادة ، وأخرى .. الكنارى - ساكنه فى قفصها .. صامتة واجمة ! إلا أنه كان يضيق أحياناً فجأة بهذا الشعور .. خاصة أن لديه فى حجرته المفتوحة على الشرفة صورة فوتوغرافية قديمة معلقة بإطارها على الحائط ، احتفظ بها كوثيقة وشهادة تاريخية على إحدى مراحل العبوردية التى مرت بها الشعوب السوداء فى أفريقيا ، حين كانت تجارة العبيد رائجة .. ها هى الصورة ناطقة بالجريمة : ثلاثة من الزنوج من أهل الكونغو مربوطون بسلاسل طويلة بعض الشىء ، تسمح لهم بالمشى وبالعمل لكنها لا تسمح بالهروب وعلى رؤوسهم

جرار بها ماء جلبوه من النهر .. إنها أبشع الوصمات التى اقترفها الاستعمار الأوروبى !!

كم من القرون استمرت تجارة العبيد دون أن يهتز الضمير البشرى إلى أن قامت ثورات التحرير ؟! (وابتسم فى نفسه) أليس من واجبنا نحن البشر ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين أن نقوم بثورة تحرير الطيور (وتذكر السيدة صاحبة بيت العصافير) إلى متى ستظل التجارة بهذه الطيور ؟!

وإذا بوجهها الباسم اللطيف ينقلبْ وتفيض نظراتها بالغضب تقول له بخشونة : لم لا .. أو لم يقل فى كتابه الكريم : « والخيل والبغال والحيمر لتركبوها وزينة » .. نعم .. بعض الحيوانات والطيور خلقها الله لنمتع بها أبصارنا .. و ..

وهكذا عاد مرة أخرى للاستسلام لفكرة تقبل حبس الطيور .. إلى أن كان صباح باكر .. استيقظ صاحبنا فإذا به وهو يفتح زجاج الشرفة يحس بزخم عاطر منعش يشيع فى هواء البكور ، فهتف لنفسه : آه .. إنه الربيع .

وإذ خرج إلى الشرفة يملأ عينيه بالمنظر الكونى الجميل ، رأته عصافيره فراحت تحوم حوله تستعجله أن يضع لها طعام الإفطار ، كذلك الكنارى ، فوجىء بهما يزقزقان وفى حالة مرح وانتعاش لم يرهما عليها من قبل . تراه سحر الربيع مسهما هما أيضاً فراحا

يتواثبان وأحياناً يفردان أجنحتهما كأنما يعلنان عن أشواقهما للحرية .. هنا داخله نوع من اليقين بأنهما لو انفتح الباب لهما لطارا وحلقا ومضيا يجوبان الآفاق .. وأن دعوى عجزهما عن الطيران هى دعوى باطلة وظالمة .. فى تلك اللحظة بالضبط لمعت فى ذهنه فكرة فرح بها وحلا له أن يتأملها ، ويفكر جيداً بعواقبها : أن يطلق سراحهما ، ليس إلى الفضاء .. وإنما داخل حجرته بعد أن يحكم إغلاق بابها ونافذتها .. ويرى على الطبيعة قدرتهما على الطيران .

وقرر على الفور تنفيذ الفكرة . سأل نفسه : هل أشرك صاحبتهما فى التجربة ؟! أجل .. ولسوف بالتأكيد تتعلم منها شيئاً .. كما سأتعلم أنا (واستخفته حالة من المرح) والأمر فى الأول والآخر لعبة مسلية .. فلأشركها معى فى اللعبة !

وبدأت التجربة ..

وإذ رأته يحكم غلق الأبواب والنوافذ ، داخلتها الطمأنينة على مستقبل عصافيرها ووقفت مشرئبة العنق والنظرات تتابع التجربة الخطيرة والمثيرة .. ها هو الجد يفتح لهما الباب ثم يبتعد بها عن القفص كى يداخل العصفورين الأمان .. ولكن ما بالهما لا يتقدمان إلى الباب .. بل – ويا للغرابة – رأتهما يتراجعان مبتعدين عن الباب المفتوح ..

– أهو الخوف من الحرية ؟ كان الجد يسأل نفسه ، بينما الصغيرة بدا عليها الفرح الشديد .. بل قل الإحساس بالنصر .. إن زوج الكنارى متمسكان ببيتهما وبصاحبتهما . إلا أن المفاجأة الهائلة سرعان ما حدثت وأصيب الاثنان بما يشبه الذهول وهما يريان العصفورين وقد اندفعا من الباب محدثين فى الهواء ما يشبه صوت الشلال أو العاصفة . ورفرف قلب الجد بداخله وهو يرى أجنحة العصفورين ترفرف وتصفق وتدور فى أرجاء الصالة ثم يتوقفان على إطار إحدى الصور الكبيرة المعلقة ..

صاح الجد بلهجة منتصرة : أرأيت .. كيف طارا .. وكم هى أجنحتهما قوية ؟!

قالت متجاوزة السؤال : والآن كيف ستعيدهما إلى القفص ؟!

– ليس فى الأمر مشكلة .. المهم الآن أن تكون قد اقتنعت بقدرتهما الطيران .. وأننا لو فتحنا لهما النوافذ فإنهما ..

لم تمهله ليكمل ، بل صاحت معترضة وقد ارتعشت شفتاها ولمعت عيناها بالدموع : لا يا جدو .. لا .. أنت وعدتنى بأنك ستعيدهما إلى القفص .. وعدتنى .

- قال مؤكداً بعصبيه : وأنا عند وعدي . سأعيدهما كما كانا ورأى أن ذلك سيقتضى منه مجهوداً كبيراً قد يرهق قلبه المتعب ، وعاودته تحذيرات الطبيب : فلأنادى على ابن البواب ليساعدنى .

ولم تمض ساعة أو أقل ، حتى كان الكنارى قد قبض عليه وأعيد إلى القفص من جديد !!

عادت الفرحة للصغيرة وتهلل وجهها أما الجد فقد أحس فيها بقدر كبير من العدوانية ، وفكر : من قال أن الطفولة كلها براءة ؟! بل إنها الأنانية المفرطة وحب التملك على نحو لا مبالاة معه بسحق الآخرين .. أم أننى أبالغ فى الإدانة .. وأن هذه هى الطبيعة الإنسانية .. أن يكون للإنسان أشياء يملكها .. هو وحده .. دون الآخرين .. الملكية .. قضية القضايا ، ومحور حركة التاريخ وصراعاته .. وها هى نهاية القرن العشرين تشهد تفكك تلك الدولة التى جاءت أوائل القرن بثورة حمراء أعلنت وطبقت شعار تحريم الملكية ، أو على الأقل تقييدها إلى أقصى الحدود ، باعتبارها أكبر الشرور وأخطرها فى التركيبة الإنسانية .. تفككت أخيراً هذه الدولة وأعلن فى كل العالم عن سقوطها المدوى ، وقيل لأنها قامت فى الأصل على نظام مخالف للطبيعة البشرية القائمة أساساً على حرية الامتلاك والتملك ! (واسترجع تلك الأيام) لقد كان منتمياً وبمنتهى الحماس لهذه النظرية .. فهل يبكى الآن على أطلالها ، أم يواجه الأمور بشكل واقعى ويراجع فكره .. يوافق حفيدته الصغيرة على ملكيتها الجديدة هذه ، ويحاول .. فلنترك الإجابة للزمن وللأحداث .. ومن يدرى .. فقد تأتى الليلة الأولى للقرن الواحد والعشرين ومعها الجواب .. « اليقين » .

[٤]

السيـــدة كنـــارى

هكذا ، يوماً بعد يوم ، وجد الجد الشيخ نفسه يعتاد منظر الشرفة بما يحوى من تناقض صارخ : طيوره الحرة السعيدة الطليقة ، وكنارى الصغيرة الساكنة الواجمة فى تقفصها .. أكثر من هذا أصبح هو المسئول عن إطعام الكنارى المحبوس بجانب عصافيره الحرة .. وبالتالى كثر تردده على محل « بيت العصافير » وصار يلتقى كثيراً بصاحبته حتى نشأ بينهما ما يشبه الصداقة .. ولأن جمالها ، وأناقتها كانا من النوع الذى يروق له فقد سرح منه خياله : لو أننى كنت لا أزال فى شبابى لتغزلت فى جمالها ، ولكن .. أليس من حق الشيوخ أيضاً أن يتغزلوا ؟! بل إنهم الأحق والأحوج إلى هذا الغزل .. طالما أن القلب هو الذى ينادى .

وهكذا ، وتلقائياً ألقى نفسه فى إحدى المرات يحدثها عن اتساق لون جلبابها مع لون بشرة وجهها .. وتجرأ أكثر ولمح لها عن الشبه بين رقبتها الطويلة ورقب « نفرتيتى » الملكة المصرية الشهيرة . فاهتزت بالشكر معلنة عن سعادتها الحقيقية .. حينذاك تفتحت فى نفسه مسام كثيرة كانت مغلقة ، وأحس بحركته أصبحت خفيفة ومغرية بالمزيد من التحرر من قيود السن وثقل الإحساس بالشيخوخة آه لو تكون هذه السيدة غير متزوجة .. وماذا أيها العجوز المخرف .. إنها لتقارب فى السن ابنتك .. أم الحفيدة (وابتسم فى نفسه) ما أكثر الذين فعلوها .. واللاتى فعلنها !! . وجمح به الخيال فرأى نفسه عريساً يتأبط ذراعها وقد ارتدت ثياب العرس ، والحفيدة الصغيرة تتقدمهما مرتدية ثوباً

أبيض من التل .. فى يدها شمعة طويلة مضاءة (وقهقهت أعماقه ساخرة) أنا الذى كان كل حلمى أن أعيش حتى تتزوج هذه الصغيرة وأنا الذى أسلمها ليلة الزفاف لعريسها ؟! أنا أتزوج ؟! وممن ؟! من سجانة للطيور .. لأجمل وأرق الطيور .. سأتحول معها إلى كنارى عجوز .. ورأى نفسه يدخل قفصاً كبيراً من نوع أقفاص الطيور .

يا عجباً .. كيف لإنسانة بكل هذا الجمال ورقة الإحساس أن يكون ذلك هو عملها فى الحياة ؟

وخرج منه السؤال بشكل ودود : لماذا اخترت هذه المهنة بالذات ؟!

قالت بهدوء شديد مع طيف ابتسامة : أنا لم أخترها .. كانت مهنة المرحوم زوجى من قبل أن أتزوجه . هزته الإجابة بما تحوى من معان وحقائق عن حياتها .. واستوقفته بشكل خاص كلمة « المرحوم » والنبرة التى نطقتها بها .. غمره إحساس عذب بالتعاطف وبالارتياح أيضاً .. قال بشكل تلقائى .

– البقية فى حياتك ..

غمغمت سارحة : الله يبقى حياتك .

– منذ كم من الزمن ؟!

هذه هى السنة الثانية لى وأنا واقفة وحدى فى المحل .

– وكم من السنين عملت معه !

- ولا يوماً واحداً .. (وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة) كان يعتبرنى كنارى ، ويخاف على من الخروج .

تضاعف انتباهه ، وقد استثاره وأدهشه الرمز الذى تتحدث به : تشبيهها بالكنارى اندفع قائلاً ، وقد زايله الإحساس بالتحفظ فى الحديث صراحة عن جمالها : كان عنده حق « المرحوم » وصدقينى .. كان بودى أن أقولها لك أول يوم رأيتك فيه .. إنك بالفعل تشبهين الكنارى .. كنارى إنسانى .

وإذا بوجهها يكتسى فجأة بالجدية ، وقالت بتنهيدة : كان ذلك ثمنه غالياً جداً :

- كيف ؟!

- ما زلت أنكر كلماته الأولى فى لقائنا الأول ، وهو ينظر لى مبهوراً « إنك لتشبهين الكنارى » لكم أحب نوع جمالك هذا .. كنت أبحث عنه .. الرقة مع الجمال .. الجمال الذى يدق قلب الإنسان خوفاً عليه من الحدآت والصقور والذئاب البشرية .. هل تقبلينني زوجاً « عاشقاً » وعابداً لجمال الكنارى ووداعته ؟!

خطف قلبي بكلماته . وافقت . وكان ذلك يعنى بالطبع موافقتى الضمنية على شكل الحياة التى اختارها لى معه .. أن أبقى فى البيت بلا أى عمل سوى انتظار عودته لى فى المساء .. وعشت معه بالفعل .. هكذا .. راضية مرضية .

- وكيف إذن تعلمت المهنة ؟!

- لا أعرف .. فبعد تلك الحادثة البشعة التى انتهت بكارثة موته لاح لى شبح الخراب ، والفقر ، والجوع .. انتفضت ومعى حزنى .. أعدمت فى نفسى فكرة الكنارى .. لابد من الخروج على الفور .. يجب أن يبقى المحل مفتوحاً . وأن تظل الكنارى فى أقفاصها حية وزاهية وجميلة .. هذا هو مصدر رزقى الوحيد .. ولابد أن أنجح فى المحافظة عليه .

صاح الشيخ فرحاً يكاد يكون مهللاً : هذا يؤكد صحة نظريتى .. إن الكنارى إذا فتح له الباب فلابد أنه يحلق وينطلق بلا حدود .. هيه .. أكملى أرجوك .. بل أحك لى من البداية .. إنك لقصة رائعة تحكى .

- فى البداية كنت خائفة ومرتعبة . لكن الوضع لم يكن يسمح لى بالتردد .. فتحت الباب وخرجت .. رميت بنفسى فى المعمعة .. وأنا أصلاً من عائلة بسيطة ومكافحة .. ذلك ما أعطانى القوة وروح التحدى فى مواجهة الأزمة .. وسرعان ما اكتشفت أن الأمور تسير بشكل تلقائى .. وأن الحياة لها قوانينها التى تكاد تسير نفسها بنفسها دون تدخل كبير منا .. كما تذكرت حكمة أو جملة بليغة كانت ، وما زالت أمى تقولها لى كلما رأتنى قلقة على ولدى الصغيرين : « يا بنتى الأرض بتربى البطيخ » .. بما يعنى أن

البذرة الصغيرة تلقى في الأرض ، فإذا بالأرض بكل عناصرها ، وبكل قوانين الحياة والنمو الكامنة فيها .. تتعهدها ، وإذا بالبذرة الصغيرة الدقيقة ، وقد نمت وتفرعت ومدت جذورها وتكورت فوق سطح الأرض على شكل بطيخة خضراء حمراء القلب رائعة المذاق .. كذلك الكنارى .. (وأشارت على الأقفاص) فوجئت بأنها فى غير حاجة إلى مجهود كبير .. إنها تعيش بنظامها الخاص .. ليس لها من مطلب غير الأكل والشراب وتوافر النظافة ، وتجديد الهواء .. أدركت أن الكائنات بداخلها قوتها التى تعيش بها كما أدركت أن الكائنات بداخلها قوتها التى تعيش بها كما أدركت شيئاً آخر سيسعدك أنت بالتأكيد .. أن طير الكنارى هذا يقيناً لو فتحنا له الباب فسينطلق بالفعل ويطير وسيعرف كيف يدافع عن نفسه ، ويبنى لنفسه بديلاً للأقفاص أعشاشاً على الأشجار .

قال الشيخ مكملاً والسعادة تطفر من قلبه : يفعل الكنارى الطير مثلما فعل الكنارى الإنسان (وأشار عليها بحركة تمجيد) .

نظرت إليه ، وقد شعت ذرات وجهها بالفرح ، وتجدد إحساسها بالنجاح وبالانتصار . أنت إنسان عظيم .. سعيدة أنى عرفتك .

– وأنا أسعد .. وشكراً للكنارى .

– نعم شكراً للكنارى ، ومعذرة له منا نحن الاثنين .. معذرة فى السر .. أنه ما زال حبيساً فى القفص .. ولكنها الحياة .. ضرورات الحياة.

وذات مرة ، بينما هو داخل إلى المحل ليشترى طعاماً جديداً وطازجاً للعصافير استوقف بصره قفص مدلى هو آية فى الجمال والإبداع فى التصميم على نحو أثار خياله وطار به إلى أجواء « ألف ليلة وليلة » وبالتحديد قصة الأميرة الجميلة وحيدة والديها .. والتى من فرط الخوف عليها تعيش حبيسة القصر .. لا أنيس لها غير بلبلين فى قفص ملوكى بديع موضوع بالنافذة .. مضى الرجل يتأمل خطوط القفص واستدارته باحثاً عن سر الجمال فى تكوينه .. دون أن يتوقف لحظة عند زوج الكنارى القابع فيه ، وكذلك دون أن يخالجه أبسط شعور أنه أمام سجن للطيور .. بل هو أمام تحفة أو تكوين رائع من إبداع فنان أراد أن يمتع عينى أميرة حزينة .. واحتشدت نفسه فجأة بالرغبة فى أن يحوز هذا القفص فى بيته حيث يجد له ركناً أو موقعاً متميزاً ومتفرداً يجسد به معنى رائعاً انبثق فجأة فى ذهنه وفرح جداً به لكنه لم يبح به ، بل أضمره فى نفسه .

صاح على السيدة : جميل جداً هذا القفص .

فرحت بإعجابه وانفعاله : إذن هو لك .. هدية منى .. بما فيه . لن يذهب لأحسن منك !

اهتز طرباً .. لو ترك نفسه لمشاعره لا ندفع واحتضنها فرحاً وامتناناً .. شكرها من قلبه : هذا كرم لا أقدر عليه .. قالت : لا تتصور سعادتى .. كنت أخشى أن يذهب لمن لا يقدر جماله .. وندرته.

تضاعف إحساسه بالسعادة والامتنان . وخطر له أن يقول لها أو يفهمها بشكل غير مباشر أنه لابد سيرد لها هذه اللفتة ، وعلى أعظم مستوى .. لكنه فضل أن يحرر الفعل الجميل من انتظار أى مقابل . وإذ حمل القفص بزوج الكنارى قاصداً بيته ، داخله إحساس مبهج بأن شيئاً جديداً رائعاً يدخل حياته ، ويضاف إلى ممتلكاته فى هذا العالم .. خاصة بعد أن ينفذ الفكرة المضمرة فى نفسه ، والتى لم يعلنها بعد (وانتعشت روحه بالفرح) لسوف أفعل شيئاً لم يفعله أحد غيرى .. على الأقل فى حدود علمى (وصارح نفسه بالفكرة) : لسوف أفتح باب القفص ، وأطلق الكنارى .. إلى رحابة العالم .. ثم بعد هذا سأترك الباب مفتوحاً .. أما القفص .. القفص ذاته .. ببابه المفتوح ، سأضعه فى أوضح مكان على سور الشرفة .. مطلاً ببابه المفتوح على الفضاء الرحيب .. رمزاً لأجمل وأعظم معنى : الحرية .

واستخفه الفرح بالتجربة : بل قل المغامرة .. وتراءى له طيف الصغيرة .. هل يدعوها لتشهد معه الفعل العظيم ، أم أن شيئاً كهذا قد يكون صارماً وقاسياً عليها .. وهى ترى الكنارى الجديد الرقيق يدفع دفعا إلى التيه والمجهول بينما كناريها .. لا يزال مغلقاً عليه بإحكام .

هل يعفيها من المشاركة أم يلقنها الدرس البليغ ؟!

وكالعادة كانت هى أول من رآه ، وهو يفتح الباب ويدخل .. وحين وقعت عيناها على القفص بالكنارى قفزت من جلستها المعتادة أمام جهاز التليفزيون وهتفت بحماس وفرح : الله .. جميل جداً هذا القفص .. والكنارى أيضاً (ثم أكملت) لمن هذا القفص يا جدو (متمنية أن يقول لها) هو لك يا عزيزتى .

قال ببساطة : إنه قفصى .. أنت لديك قفصك .. وأنا لى قفصى .

إذن فقد أصبح عندنا قفصان .. وزوجان من الكنارى .. قال بهدوء شديد ، ضاغطاً على الكلمات : بل زوج واحد .

– زوج واحد ؟! كيف ؟!

– لأننى كما قلت لك من قبل لا أطيق رؤية الطيور المحبوسة .

– لا أفهم .

– ستفهمين حالاً .. وأرجوك أن تتذكرى .. كما أنك حرة فى عصافيرك أنا أيضا حر فى عصافيرى .

ومد يده إلى باب القفص . وبأطراف أنامله رفع بابه إلى أعلى فانفتح .. صرخت الصغيرة محذرة وخائفة : اقفل يا جدو .. سيخرج الكنارى ويطير .. اقفل بسرعة . قال بهدوء شديد .. باسماً : بل سأبقيه مفتوحاً ، ولن أغلقه مرة أخرى .

حملقت فيه دهشة واستغراباً .. قال مهيئاً نفسيتها لوقوع الحدث الكبير : ألم نتفق أن كلينا حر في عصافيره ! لقد قررت أن أطلق عصافيري من سجنها .. أطلقها .. إلى الحرية ..

– ويبقى القفص من غير عصافير ؟!

– هذا بالذات هو ما أريد .. قفص خال .. مفتوح .. بلا عصافير .

ورأى شيئاً من الرضا والارتياح على ملامحها ، وقالت بصوت خافت ، وقد دبت في نفسها ثمة أمنية :

– أرأيت يا جدو .. ها هو الباب أمامها مفتوح ، ومع هذا فهي ترفض الخروج .. هذا يعني أنهما تفضلان البقاء فيه .

قال بهدوء مترقباً تطور الأحداث : لا داعي لأن نتعجل الأمور فلنرقب ما يحدث على مهل .

وبدا له غريباً ومقلقاً أن أكثر من ساعة مرت دون أن يتنبه زوج الكناري أن الباب مفتوح إذ ربما هما متنبهان،لكنه الخوف من الحرية .. الخوف من المجهول ! ألا يحدث هذا في دنيا البشر والشعوب التي اعتادت العبودية والأغلال فاقدة الثقة في قدرتها على التحرر؟!

وانتبه فجأة من خواطره على جرس التليفون يدق عاليا .. فاسرع إليه .. وفي اللحظات التي انشغل فيها بالحديث وقع ما جعله

يقطع المكالمة ويهرع عائداً إلى القفص بينما الصغيرة كانت تصيح مرتعبة : إلحق يا جدو .. العصافير طارت يا جدو ..

ورأى القفص وقد أصبح خالياً .. قال وقد إنتابه مزيج من الفرح الأسف : يا خسارة .. كنت أتمنى أن أراهما لحظة خروجهما واندفاعهما إلى عالم الحرية .

- لقد اختفيا يا جدو .. ولا أحد يعرف ما الذي سيحدث لهما بعد ذلك.

قال يطمئنها :

- سيحدث لهما كل خير .. لا تخافى عليهما .. لقد أودع الله فى مخلوقاته إرادة الحياة ، وستلهمهما الحرية كيف يواصلان الحياة .. وسيعرفان كيف يجدان طعامهما ، وشرابهما .. (وأشار إلى صف طويل قريب من الأشجار) والمأوى أيضاً

قالت وعيناها على القفص الخالى : وماذا ستفعل بعد ذلك بالقفص ؟!

قال : سأفعل به شيئاً عظيماً .. (وسرحت نظراته إلى بعيد) شيئاً يفتخر به إنسان القرن العشرين .. كيف أشرح لك ما أفكر به .. إننى أحلم بمكان أروع يوضع فيه .. فوق قاعدة مرتفعة خارج سور الشرفة فى الهواء الطلق ، ظاهراً للعيان الغادى والرائح يراه .. مطلاً من منصته على النهر والزرع والصحراء والأهرامات .. يصبح علامة مصرية وإنسانية جديدة على الطريق .. آه .. كيف أوصل لك ما

أريد .. أنت طفلة ذكية وطموحة وسريعة الفهم ، ولهذا فقد اتخذتك صديقة لى ، وأنت أيضاً اتخذتنى صديقاً لك .. ولهذا لا أحجب عنك شيئاً .. وما أكثر ما اصطحبتك معى فى مغامرات مثيرة باهرة فى عالم الخيال والفكر .. أتعرفين يا صديقتى .. فى مدخل إحدى مدن أمريكا .. اسمها نيويورك .. وعلى مرتفع يطل على المحيط الهادى .. تمثال ناهض رائع للجمال لفتاة ناضجة شامخة الجمال تحمل فى يدها المرفوعة إلى أعلى شعلة من النار والنور .. اسمه تمثال الحرية .

أمنيتى الآن أن يبدع أحد أصدقائى المثالين المصريين العظا تمثالاً ناهضاً فى شموخ لسيدة مصرية مهيبة .. فلاّحة بجلباب فضفاض-مرفوعة الذراعين .. حاملة على كفيها المبسوطتين قفصا كبيراً رائعاً مثل هذاءتحفة فى الجمال وأوضح ما فيه باب مفتوح .. يخرج منه منطلقاً ومندفعاً طائر عظيم .

يصبح تمثالاً جديداً للحرّية .

هديتنا للوليد الجديد القادم .

القرن الواحد والعشرين .

وذاب الاثنان من فرط الوجد فى عناقٍ إنسانى عظيم .

[٥]

شيكـــو .. شهيـــد السجـــون

حلّت على الشيخ غبطة روحية عميقة أحس معها بخفة فى الجسد والروح ، وانجابَ عنه ثقل الإحساس بالسن والشيخوخة ، وضحك قائلاً لنفسه : لكأن السبعين عاماً التى أحملها سقطت فجأة من على كتفى وأصبحت فتىً فى السبعين .. أجل - وإننى أتمنى لو أننى الآن على شاطىء البحر لأقذف بنفسى فوق أمواجه - إننى أود أن أنقل شعورى هذا لكل الناس .. خاصة الشيوخ : أصيح بهم : يا شيوخ العالم انهضوا .. تفاعلوا .. فما زال فى الإمكان أن نقدم للعالم إنجازات بل إبداعات وروائع ..

واتجه ببصره إلى الشرفة حيث قفصه الرائع الذى أطلق منه الطائرين الحبيبين وأصبح ببابه المفتوح رمزاً إنسانياً وكونياً للانطلاق وللحرية .. « أجل يا أصدقائى .. حسب المرء منا - مع التجربة والإيمان - خيالاً خلاقاً يدفع به إلى فعل عظيم تغتنى به الحياة وتصبح أجمل وأكرم »

وأخذته قدماه إلى السور حيث وضع القفص وثبته ، مطلاً ببابه المفتوح على المنظر الطبيعى الرحيب .. يملأه الشعور بالرغبة فى احتضانه ومناجاته .. غير أن القفص الآخر - قفص الحفيدة الصغيرة .. المغلق على زوج الكنارى جذب بصره . ورغم أن العصفورين كانا ساكنين كالعادة فى اكتئاب ووجوم .. إلا أنه هذه المرة لم يداخله الضيق أو الغيظ لسجنهما - بل قال فى نفسه وهو ينقل بصره بين القفصين ، رابطاً الأحداث والأشياء بعضها ببعض :

لولا انفعالى الأول الغاضب لحبسهما ، لما انبثقت فى رأسى فكرة قفص الحرية .

أجل .. فمن عذابات الاستعباد تنطلق شرارات التمرد والثورات .. ومن عصور العار والاستعمار خرجت ملاحم الحزية .. فلأمهل الصغيرة حتى تكبر وينضج وعيها بالقضية .. وما أكثر ما حاولت أن أفهمها ، أنه ليس شرطاً لكى يكون الشىء ملكى ، أن أحتفظ به فى جيبى أو فى حيازتى أنا وحدي .. لا يشترك معى فيه أحد غيرى .. فأنا أملك الهواء رغم أن الآخرين يشتركون معى فى تنفسه .. كذلك أملك البحر رغم أن الكل ينزل إليه ويسبحون فيه .. ثم ما هو الأجمل والأمتع يا عزيزتى : العوم فى حوض سباحة صغير خاص بنا ، أم فى رحابة البحر العظيم والآخرون يشتركون معنا في متعة السباحة والمرح الجماعى ؟!

وما أكثر ما حاولت – وما زلت – أن أوصل لها هذه المعانى .. مستعيناً بالصبر حتى لا ألجأ معها إلى حد التهديد والفرض .. ذلك يحولنى أنا المدافع عن الحرية إلى دكتاتور .. وتلك هى مأساة الثورات عبر التاريخ .. تقوم فى البدء من أجل الحصول على الحرية ، فإذا بها تكبت الحريات بوحشية لتأمين حريتها هى .. إنما الإيمان بالقيم الإنسانية يحتاج إلى صبر ووعى .. والأفكار مثل البذور ، تحتاج إلى وقت لتنمو فيه وتنضج وتصبح أشجاراً تطرح ظلالاً وثماراً . فلأترك الوضع بينها وبين عصفوريها السجينين للزمن يفعل فعله .. أما أنا ،

فلأتقبل وجودهما معى في البيت بسماحة ورضا .. خالياً من أى إحساس بالذنب تجاههما .. بل ولماذا لا أحولها إلى تجربة ؟! أن أعايش عالم الكنارى فى أوقات فراغى .. وما أطول هذه الأوقات !

وفرح بالفكرة .. اعتبرها نوعاً من التغيير يبدد به الملل الذى يحول الحياة إلى خواء .. خالية من أى معنى !

وأعد لنفسه جلسة مريحة في موقع لا يخيفهما ولا يزعجهما ويستطيع أن يتابع منه كل تحركاتهما وسلوكياتهما .. وتموج ألوانهما الزاهية مع تغير درجات الضوء .. كانت صفرة الريش فى الأنثى باهرة وفاتنة .. وكذلك الخضرة المرقطة بالرمادى والأسود فى الذكر مثيرة للإعجاب وللعجب .. سبحانه وتعالى .. « المصمم الأعظم » !!

لكن التصميم الأعظم والذى استوقف انتباهه طويلاً وكأنما يلاحظه لأول مرة ، هى تلك الثنائية الجامعة ، والموحدة بين الاثنين رغم اختلافهما .. ذكراً وأنثى .. اختلاف هو فى جوهره سر ودافع التوحد بينهما .. وفكر بأن هذا التوحد فى حالتهما هو نعمة عليهما ، إذ يعينهما على محنة الحبس ويساعدهما على احتمالها !! .. إلا أنه سرعان ما اكتشف أنه يبالغ كثيراً فى تصوير وضعهما على أنه محنة .. ذلك أنه فوجىء بهما - ذات ضحى مشرق - فى حالة ابتهاج وانتعاش غير عاديين . تفتحت روحه وجلس يرقبهما . وإذا بحمية اللعب تأخذهما فيدخلان فى عراك بالمناقير .. ضربات خاطفة حنونة

يغلب عليها الود والعشم .. وأحياناً ، ومن فرط الحيوية والانتشاء باللعب كانا يصطدمان بأسلاك القفص ويسقطان ثم لا يلبثان سريعاً أن يحافظا على توازنهما وينهضان . وما أكثر ما رآهما يفردان أجنحتهما ثم يطبقانها ثم يفردانها وكأنهما على أهبة الطيران !!

وفكر مبتهجاً : ليسا حزينين كما كنت أتصور . إن غريزة حب البقاء تلهم الكائنات ابتداع أشكال من الفرح ومن تحقق الوجود ، خاصةً بها !

ألم يحتمل العظيم « مانديلا » أكثر من خمسة وعشرين عاما فى السجن خرج بعدها ليصبح رئيس جمهورية جديدة حرة ؟! .. تشبيه بالطبع مع الفارق .. ذلك أن أحرار العالم تكاتفوا فى كل مكان حتى نجحوا فى الإفراج عنه ، وتحريره من سجنه .

ونظر إلى الطائرين السعيدين بلعبتهما : هذا لا يعنى أيها العزيزان أنى راض عن استمرار حبسكما .. وإنى لواثق فى حس صاحبتكما .. وأنها يوما .. بنضج الوعى ، وإلهام صدق البصيرة ، ستلهم القرار الصحيح الشجاع !

* * * * * *

إلى أن حدث ذات يوم .. بل قل ذات لحظة .. ذلك أنها جاءت مع ذروة إحدى موجات الحر البالغة القسوة والفظاعة مما ذكر الناس بنار السعير وبالصهد القادم من جحيم الآخرة : حدث أن تزامن هبوب

هذه الموجة مع قيام صاحبنا الشيخ هو وأسرته فى رحلة إلى خارج القاهرة تستغرق أياماً ثلاثة .. وحين عادوا إلى القاهرة ، كانت موجة الحر ما تزال فى عز جبروتها ، فاندفعوا إلى داخل البيت ملهوفين للظل ، ولإدارة المراوح ، وأجهزة التكييف لدقائق وإذا بالجد يفاجأ بحفيدته مقبلة عليه جرياً ، ووجهها ينطق بالروع وخيوط من الدموع نازلة من عينيها .

وقالت نائحة

- شيكو مات يا جدو .. شيكو مات ..

وأوشك أن يسألها من يكون شيكو هذا ، غير أنه تذكر بإلهام اللحظة أن شيكو هو اسم ذكر الكنارى .

انتفض من جلسته : مات ؟! كيف ؟!

- تعال حضرتك شوفه !

وفكر فى التو أن موجة الحر الباغية قد صرعته . كان المنظر مؤلماً باعثاً على الكآبة والحزن . وعلى كثرة ما مرت به حوادث الموت عبر حياته الطويلة حتى أنه بدأ يعتادها ، إلا أن قلبه انقبض بشدة لمرأى الكنارى الملقى على أرض القفص ، منكفئا بوجهه هامداً بلا حراك .. لكن الغريب الذي هز وجدانه منظر الجناحين .. كانا مفرودين عن آخرهما ، كأنما كانت هى محاولته الأخيرة العاجزة للطيران وللانطلاق .. أو ربما كانت هى انتفاضة طلوع الروح !

وقال فى نفسه وقد أشفق على الصغيرة من المنظر : يا عجباً .. بعد أن كان ما بيننا هى قضية الحرية ، ستحل محلها قضية الموت ! .. وفكر بأن يسرع بتغطية العصفور الميت حتى يقرر ماذا سيفعل به .. لكن منظر الأنثى المسماة « نالا » جذب انتباهه . كانت تطل على رفيقها من أعلى فى وجوم .. كأنما هى فى حداد !! وخطرت بباله « طيور الحب » .. ذلك النوع الذى يترافق فى الحياة وفى الموت .. وأنها من حزن الوحدة وافتقاد الحبيب ، ستلحق به فى القريب .. وبهذا تنتهى قصتهما على نحو مأساوى !! .. مأساة حب فرض على بطليه أن يعيشا فى قفص .. ويقيناً ، فإن الحبس ، رغم قسوة الموجة ، هو الذى عجل بموته .. فلو كان حراً .. لأنقذ نفسه على نحو ما ؟! هل يقول هذا للصغيرة حتى تعى الدرس ؟! غير أنه رأى فى ذلك قمة القسوة ، وسيشعرها بالذنب الرهيب الذى قد يظل يصاحبها طيلة حياتها .. كما أن أحداث الموت فيها عجائب وأسرار لا يدريها أحد .

– أترين نالا .. كيف تنظر إليه .. إنها حزينة لفراقه .. أعتقد أنها لن تعيش طويلاً بعده .. للأسف !

عاودت شفتيها الرعشة : ولماذا يا جدو ؟!

– لأنهما من طيور الحب ..

– طيور الحب ؟! ماذا تعنى طيور .. الحب ؟!

– هو نوع من الطيـور . كل زوج منها – يجـمـعـهـمـا عـهـد على الإخلاص .. لا شيء يفرقهما غير الموت .. وحتى بعد الموت . حين يحدث لأحدهما ، يبقى الآخر مخلصاً للذكرى .. لا يعرف طائراً آخر حتى يأتيه الموت ؟! وبالمناسبة .. يوجد أحياناً هذا النوع بين الناس !

اتسعت عينا الصغيرة مدهوشة بالمعنى : كيف ؟!

آه .. إننى هكذا أدخل بالصغيرة في قضايا كبيرة .. قضايا أنا نفسى لم أحسمـهـا بعد .. والدليل ما حدث منه مع أحد أصدقائه المقربين إثر موت زوجته ، ورفيقة عمره ، لقد وجد نفسه – بدافع الشفقة عليه – يُمنّيه بحب جديد .. وإلف جديد يؤنس حياته .. أجل .. فأن نظل أحياء بعد موت الأليف ويتجدد حبنا للحياة مع إلف آخر ليست أبداً خيانة .. بل إن روح الزاحلة أو الراحل لتفرح لسعادته ..

أى المنطقين ينصح به الصغيرة ؟!

ورأى أن اللحظة لا تسمح بالكلام وبالقصص ، إذ لابد أن يتصرف وبسرعة مع هذا الملقى على أرض القفص .. سوف أحكى لك عن كل هـذا فيما بعد .. الآن يجب أن نتصرف بسرعـة مـع « شيكـو » .. (وأوشك أن يقول) يجب أن نسرع بدفنه .. لكنه أشفق عليها من كلمة الدفن ..

- يجب أن نضعه في مكان آمن وأمين .. إنه الآن أمانة ، وسنعيدها إلى الذي خلقها ..

- تقصد ربنا ؟!

- سبحانه وتعالى .. هو الذي يخلقنا .. وهو الذي يعيدنا إليه ..

- إذن فكلام ماما عن موت شيكو صحيح .

- ماذا قالت ماما ؟!

قالت : ربنا اختاره ..

هز رأسه مؤمناً .. ومستريحاً لتقبل الصغيرة للجواب .. فوجيء بها تواصل : ولكن .. ما دام ربنا اختاره .. فلماذا لم يأخذه معه للسماء؟!

- أخذ روحه .. أما الجسد فقد أبقاه لنا .. معنا .

لكي تتغذى به الأرض !

- تتغذى به الأرض ؟! كيف ؟!

- سأريك بعد قليل .. لكني أطلب منك شيئاً .. أرجوك .. أن تكفي عن الأسئلة بعض الوقت .. تؤجلينها إلى أن ندفنه ..

- ندفنه ؟! وأطل من عينيها شيء من الروع لم يعبأ به ، بل شرع من فوره في العملية .. أشار إلى ابنته (أم الصغيرة) التي كانت

ترقب المشهد من أوله في هدوء ومن بعيد ، راضية وسعيدة بأنه حضر الموقف الصعب وحمله على كتفيه .. هرعت إليه فطلب منها قطعة قماش عريضة ويحسن أن تكون بيضاء .. أحضرتها له على الفور ، فتناولها منها ثم أدخل يده بها ولف العصفور الميت فيما طارت العصفورة مفزوعة ومتخبطة في جنبات القفص ، ولم تهدأ إلا بعد أن أخرج كفه بالعصفور ملفوفاً في كفنه الأبيض وأغلق الباب عليها فأصبحت وحيدة في القفص !!

ها هو يحمل الكفن بالجثمان فوق راحتي كفيه المبسوطتين وذراعاه ممدودتان أمامه ..

ولأن شيخنا هذا من الأصل ذو نزعة صوفية تؤمن بوحدة الكائنات وتآخيها في أسرة كونية واحدة ، فقد رأى أن يقيم للكنارى ، مثلما يقام للإنسان ، جنازة يسيرون فيها هم الثلاثة .. مكافأة وتكريماً له على ما عانى واحتمل في حياته .. فهو واحد من شهداء السجون .. لم يتحرر للأسف إلا بالموت .. وسوف تسير سجانته – دون أن تكون على علم بهذا المعنى – في جنازته !

وقد أدركت أم الصغيرة ما يجول في رأسه ، فداخلها الإشفاق على ابنتها وهمست له شبه ضارعة : أليس الأفضل أن نجنبها هذا الموقف ؟! آخذها بعيداً حتى لا ترى عملية الدفن ؟!

رد هامساً بحسم : لا .. بل يجب أن تشارك .. مثلما تعيش معنا تجارب الحياة ، تعيش معنا تجربة الموت .. وتتعلم منها !

فى مدخل العمارة التى يسكنونها حديقة صغيرة تتوسطها شجرة كبيرة وارفة الظلال تزهو فى الربيع بكم هائل من الأزهار .. اتجه إليها .. وإلى جانب أسفل الجذع توقف ثم أنزل الكفن وأراحه على الأرض ريثماً يحفر له مثواه الأخير .. وبمدية صغيرة أحضرها معه ، مضى يحفر فى الأرض حتى جهز حفرة عميقة بعض الشىء وضع العصفور بكفنه فيها ثم راح يهيل التراب عليه ويسويه . وحين انتهى ، وقف يسترد أنفاسه . ورأى صنبور الماء القريب من الشجرة فأسرع إليه وفتحه وراح يسقى التربة بملء الكفين عدة مرات .. وأعجب المنظر الصغيرة فأخذت تفعل مثله ..

– أظن ذلك يكفى .. وخطر له أن يواصل قائلاً بعد أن انتهت كل المراسم : البقية فى حياتكم . غير أنه استبعد الفكرة . لا يحب لجو المأساة أن يسيطر على اللحظة .

قال مخاطباً الصغيرة : الآن يمكننا الاطمئنان عليه .. شيكو الآن فى حضن الشجرة ، وبعد قليل سيدخل فى فروعها وينتشر فى أوراقها .. وأزهارها .

– صحيح يا جدو ؟!

— نعم .. حين (وأوشك أن يقول : يتحلل) حين يتحول ويصبح غذاء لها .

نظرت إليه الصغيرة بدهشة راجية : كيف يا جدو ؟!

— آه (همس لنفسه) أوقعت نفسى كالعادة فى فخ أسئلتها .. والمشكلة هذه المرة ليست فى البحث عن الإجابة ، فهو يعرفها .. بل ويؤمن بها .. المشكلة فى التعبير .. أن يستطيع بأبسط الأشكال وأسهل الألفاظ أن يوصل لها الفكرة الكونية التى بات مقتنعاً بها من زمن ، فكرة الدورة ، دورة الحياة التى تشمل وتنتظم كل الكائنات الحية فى حركة دائرية واحدة تتكامل الأجزاء فيها وتتآخى وتصبح كلاً واحداً يمضى بقانون .. وأنه بموجب هذه الدورة ، لا موت هناك فى الحقيقة ، وإنما تحول فى الشكل ، وربما أيضاً فى الوظيفة ، وأحياناً بالانتقال من مكان إلى مكان ، ولكننا باقون جميعاً فى هذا العالم .. داخل الدورة .. و ..

وفيما كان يحاول جاهداً هذا التبسيط ، ممسكاً بكفها الصغيرة بلطف ، متجهاً بها نحو البيت ، آملاً إنهاء الموقف ترفقاً بها ، إذا به يفاجأ بها تسحب يدها من يده وتستدير عائدة فى صمت إلى الشجرة .. ثم تجلس القرفصاء تحتها .

— ما هذا الذى تفعلين ؟!

وإذا بها تنفجر باكية : سأبقى مع شيكو .. سأبقى مع شيكو .

أسقط فى يده هو وأمها . تبادلا نظرة .. هزاً لها رأسيهما موافقين ..

وبهدوء شديد .. جلسا بجوارها .. جنب تربة شيكو .. تحت جذع الشجرة .. فى خشوع

[٦]

السيـدة « كنـــارى » تجـد نصفها الآخر

ومع زحف ظلال المساء

وبينما الجد جالس جلسة

الخشوع هذه تحت الشجرة

بين حفيدته وابنته ، أحس فجأة بثقل في جفونه ، وبرغبة عميقة في النوم تشمله . حل تعب النهار .. آه .. كم كان يوماً حافلاً : صحيانه في الفجر .. السفر عبر موجة الحر الرهيب .. ثم صدمة موت شيكو .. ثم دفنه .. ثم أحزان الصغيرة وبكائياتها ..

النوم الآن هو الملاك الذى يحتويه في حضنه ويربت عليه وينسيه كل شيء .. وخطر له أن يتمدد حيث هو .. تحت الشجرة في رعاية ابنته والحفيدة ، بجوار تربة « شيكو » .. إلا أنه أجفل من الصورة ، وفكر بأنه لو فعلها فلن يستيقظ أبداً ،حدث هذا ذات مرة لصديق رحلت زوجته وعشرة عمره ، فذهب بعد أيام لينظف حول تربتها ويرش المكان بالماء .. ثم رقد بعد ذلك في ظل المقبرة ليستريح قليلاً . أخذته سِنة من النوم لم يستيقظ منها أبداً ..

نهض واقفاً ، مغالباً التعب وسلطان النوم . قال للصغيرة معتذراً : خلاص – لم أعد بقادر .. أنا فى أشد الحاجة إلى النوم .. (وأشار على الأرض) ما رأيك ، لو أميل بجنبي على الأرض .. هنا .. وآخذ سنة من النوم .. ؟!

وإذا بها تصيح معترضة بفزع : لا يا جدو .. لا .. فلننهض كلنا . (ونهضت بالفعل) نعود إلى البيت ، وتنام حضرتك على سريرك .

أيقن أن هواجس الموت التى مرت به ، مرت بها هى أيضاً على نحو ما .. وأنه ، كما أن نداء الحياة عنده ما يزال قوياً ، فهو عند الصغيرة أقوى ! ضمها إلى صدره بحنان واعتزاز .. جميل أنها هى التى طلبت ترك المكان .. فليأخذها من يدها من منطقة الموت إلى منطقة الحياة « هيا نطلع شقتنا. » (وأوشك أن يكمل) :

« ونرى نالا .. ما أخبارها .. ثم ننام .. لكنه تراجع .. فليعف نفسه وليعفها هى أيضاً من أية مشاعر وانفعالات .. وشجعه على هذا أنه لاحظ والمصعد طالع بهم ، أنها ملتصقة به ومسندة رأسها عليه .. حل التعب عليها هى الأخرى .. فياليتها تنام ، وينام الحزن معها وتنام أيضاً الأسئلة .

وحين جاءوا يخرجون من المصعد بدا أن النوم قد أمسك بها فتهيأت أمها لكى تحملها .. غير أنها ما كادت تحيطها بذراعيها حتى فوجئت بها تنتفض وتنزع نفسها من بين يديها مستنكرة : لا يا ماما .. لا .. لا بد أن أرى « نالا » .. ماذا هى فاعلة .. أصبحت من غير « شيكو » .. أول ليلة لها فى القفص وحدها يا جدو ..

قال الجد متضامناً : طبعاً .. عندك حق .. نالا صديقتك ولابد أن تطمئني عليها .. هيا إلى الشرفة .. كانت عتمة المساء قد تراكمت .. والأفق الرحيب الممتد صار يضيق وينكمش : والممتلكات الربانية المجانية التي ينعم بها صاحبنا الشيخ في النهار أخذت تتهيأ للانسحاب والدخول في خزينة الظلام !! حرصت الصغيرة أن تمسك بيد جدها .. ودخلا الشرفة والأم تتبعهما .. كانت « نالا » ويا للغرابة على نفس وقفتها التي تركاها عليها وهما خارجان بشيكو ليدفناه .. وحيدة .. منكسة الرأس والنظرات إلى الأرض .. وبدا للجد أنها قد تدوخ وتسقط على الأرض حيث سقط شيكو ومات . « ما الذي أستطيع فعله لها .. ولهذه الصغيرة التي ترتعش شفتاها حزناً والدموع التي ترتعش شفتاها حزناً والدموع تنزل من عينيها .. ؟! ماذا يمكن أن أفعل ؟! إنني الآن في حالة لا يصلح معها أي تفكير ..

- جدو .. جاءتني فكرة ..

تلقف صوتها .. وحماسها المفاجيء : قوليها .

- آخذ « نالا » بقفصها لتبيت معنا في حجرتنا أنا وماما .. أبدت الأم ترحيبها .. إرضاءً وتهدئة لها : ليس عندي بالطبع أي مانع .. فكرة جيدة ..

- شكراً يا ماما .. شكراً ..

- ولكن يا حبيبتى .. لو فعلنا هذا الليلة ، فلن نفعله كل ليلة .. لابد من حل دائم (وتوجهت بالحديث إلى أبيها) الحل الوحيد يا بابا أن نشترى لها ذكراً يعيش معها .. فتنسى به « شيكو » وتنتهى المشكلة .

قالت الصغيرة : هل هذا صحيح يا جدو .. لو اشترينا لها ذكرا تنسى بالفعل شيكو ؟!

انتبه للسؤال .. رد عليه بسؤال : ما رأيك أنت .. ماذا تحبين لنالا .. ماذا تريدين لها .. أريد أن أعرف رأيك .. قولى لى أى كلام .

قالت وقد عودها على حب الحوار والثقة بالنفس : ألم تحك لى حضرتك على نوع من الطيور ، حين يموت أحد الزوجين ، يعيش الثانى حزيناً عليه حتى يموت .. ولهذا أسموه : طيور الحب ؟!

أسرع الجد مؤكداً : نعم .. نعم .. أذكر أنى حكيت لك هذا .

- وحكيت لى أيضا أن الكناريا هى من طيور الحب هذه !

- هل أفهم من هذا أنك لا تريدين ذكراً لنالا ؟! تبقى هكذا وحدها .. حتى تموت !

- لا يجدو .. لا أقصد هذا .. أنا .. أنا لا أعرف .. حضرتك الذى تعرف .

فهل هو حقاً يعرف ، وعلى نحو يقينى ؟!

ها هي دون أن تدرى ، تثير فى ذهنه قضية قديمة وعزيزة عليه ، هى قضية « طيور الحب » تلك الكائنات التى اشتهرت بنبل ورقى طبعها الذى فطرت عليه وهو الإخلاص المطلق للوليف . حيا وميتاً .. وأبداً لا بديل ؟!

فهل ما يزال بعد تجارب العمر الحافلة على تحمسه القديم للأسطورة ، حين سمع بها لأول مرة فبهرته واعتبرها اكتشافاً كونياً رائعاً وتمنى لو يتحقق أيضاً فى عالم الإنسان ، حيث يتحول الإخلاص الأبدى للحبيب إلى نوع من الفروسية والإستشهاد النبيل ؟!

غير أنه لم يلبث مع مرور الأيام وتجارب الحياة أن اكتشف أبعاداً أخرى فى القضية يجب أن توضع فى الاعتبار .. أجل .. فإذا كان الإخلاص لأحبائنا الموتى ، ووقف حياتنا وتجميدها على ذكراهم إلى الأبد ، إذا كان هذا يعنى رمزاً قيماً وجميلاً فى عالم المثل العليا ، ألا يعنى على الجانب الآخر ، الجانب العملى الواقعى ، انسحاباً من الحياة ، وقطعاً لكل الأوصال بها .. وأننا فى الحقيقة ندفن أعمارنا الباقية فى مقابر الذكرى .. ذكرى موتانا ؟! نصبح الأحياء الموتى ؟!

فبماذا يجيب الآن عليها ؟!

إلى أية قيمة يدعو ؟!

هل يتشيع للأسطورة ويدعو إلى ترك « نالا » لجلال وحدتها وأحزانها ، حتى تموت على نحو يقارب الاستشهاد ؟!

أم .. يأخذ بالرأى الآخر : أشترى لها ذكراً من « بيت العصافير » فتنسى به الحبيب الذى كان ، وتعيش مع الحب الجديد .. يصنعان معا حياة جديدة .. سلوى لهما فى سجنهما الصغير ؟!

فى تلك اللحظة لمعت فى ذهنه فكرة كما الإلهام ، تحمس لها : لماذا لا يمر على « السيدة كنارى .. صاحبة محل « بيت العصافير » والتى أصبحت صديقة عزيزة له .. ويحكى لها عما حدث لشيكو ونالا ويسألها .. فقد يكون لديها تجربة مماثلة فى الموضوع !

* * * * * * *

لم يأت ضحى اليوم التالى إلا وكان يدلف إلى داخل المحل ويلقى عليها بالسلام ، ومن أول نظرة داخله إحساس يقترب من اليقين ، أن جديداً دخل حياتها ، وعلى نحو جميل . فلأول مرة لم تكن ترتدى الجلباب ، بل بنطلوناً وبلوزة ، ألوانهما فى نعومة وزهوة ألوان الكنارى : الأخضر والأصفر والرمادى .. كما كانت مشرقة الوجه ، تفيض سمرتها حيوية ونشاطاً .. وبدا عودها رشيقاً وسمهريا .. وأنها تصلح لكى تدخل إحدى مسابقات الأوليمبياد .. مسابقة الجرى أو القفز العالى . وهم بأن يقول لها : « أنا لا أكشف الغيب .. لكنى أراهن .. أن هناك جديداً قد حدث !! » .: لكنه خشى أن يكون ذلك اقتحاماً منه لحياتها .. قال باسماً بتلقائية : أول مرة أراك بلا جلباب .

بسطت كفيها وقد سرتها الملاحظة : تغيير .. ما رأيك ؟

قال مؤكداً : شيء جميل بالفعل .

أضافت بلطف : ومع هذا فالجلباب موجود . ممكن أن أرتديه لو أحببت .

- هذه لفتة كريمة مَنك .. وأحب أن أوكد لك .. إنك لو لبست خيشاً فستكونين في قمة الجمال .

صاحت ضاحكة بسعادة : لفتتك غطت على لفتتي .. والآن .. قل لي ما أخبار الحفيدة وعصفوريها ؟!

- آه .. حدثت دراما ، وجئت لأعرف رأيك .. كيف نتصرف فيها ؟!

- خير بإذن الله .

- مات « شيكو » وأصبحت « نالا » وحيدة في القفص . أعتقد أن مثل هذه المشكلة مرت عليك .

- كثيراً .. ومع هذا فهي مشكلة كبيرة .. تصعب معها النصيحة .. فالمنطق الطبيعي يقول : فلتحضر لها ذكراً يعيش معها . وهو منطق سليم .. لكن المشكلة هي في اختيار هذا الذكر .. نعم .. فالموضوع هنا ليس مجرد أنثى تحتاج ذكراً ، أي ذكر .. فنحن في عالم خاص جداً ، هو عالم الكناريا .. أنت تعلم بالطبع .. هذا النوع هو من أكثر الطيور حساسية وتأثراً بالموجات الصادرة إليه من

الآخر . هل ستتلاقى هذه الموجات مع موجاته ، أم ستتنافر وتتصادم معها ؟!

قال الشيخ مسرعاً : وبعض البشر أيضا هكذا ، ويمكن تسميتهم « البشر الكنارى » .

- بالضبط ، وهذا هو قلب المشكلة مع « نالا » أو أى طائر ، بل أى إنسان منا فى وضعها : اختيار الرفيق الجديد .. ألا نحس معه بافتقاد الذى رحل ، بل نحس معه وكأنما الذي رحل قد بعث وعاد ، وربما بمشاعر أجمل وأنبل ..

- إذن فأنت لا تتحمس لنظرية طيور الحب .. لفكرة الإخلاص الأبدى لشخص أو لطائر بعينه ..

- بالعكس .. أنا شديدة الإيمان بها .. وإننى أفضل للإنسان أو للطائر الذى فقد إلفه أن يبقى وحيداً .. إلى أن يموت ، أفضل من أن يفرض عليه آخر ليس من نسيج روحه ولا من نوعية موجاته ، وذراته .. ذلك يشكل أخطر المآسى .. وآخرها مأساة عايشتها فى هذا المحل ، منذ عدة أسابيع ..

- كيف ؟ (سألها بلهفة) إحك لى

- مات أحد الذكور فأحضرنا لأنثاه ذكراً بديلاً .. لكنه لم يعش طويلاً أحضرنا لها آخر لكن المأساه تكررت .. ثلاثة ذكور جدد ماتوا على التوالى .. بعد هذا قررت أن تبقى وحيدة .. هى وقدرها بعد ذلك ؟

قال الشيخ ، محاولاً تفسير الظاهرة : يقيناً لم يحدث توفيق في اختيار الرفيق الجديد لها !

قالت : الاختيار في مثل هذه الحالة عملية بالغة الصعوبة إذ كيف يتأتى لك ؟! هي مسألة حظ ، أو صدفة تنعم بها الأقدار علينا ، حين ترسل لنا نصفنا الثاني الحقيقي ، ذلك الذي نبحث عنه ويبحث عنا .. (وأشرق وجهها فجأة وازداد بريق عينيها لمعاناً وهي تتوجه بنظرات ملهوفة نحو باب المحل) .

– أترى هذا القادم ؟! عظيم إنه جاء في هذه اللحظة !!

من شكله العام أدرك فورا المعنى والمغزى . قال هامساً .. بلا تحفظ :

– أيكون النصف الآخر الذي جاءت به الأقدار ؟!

– بالضبط .. (ثم هامسة بفرح) أعتقد أنك ستحبه . لقد حدثته عنك كثيراً .. وبالذات عن قفصك المفتوح .. قفص الحرية !

– أشكرك جداً .. (وبحماس صادق) إنه يشبهك .. وأنت أيضاً .. حقيقة تشبهينه ..

– صاحت بفرح وقد اقترب الشاب منهما بخطوات واسعة نشطة . تعال اسمع .. أنت شبهي .. وأنا شبهك .

وبهذا الاستهلال اللطيف والطريف تم التعارف بين الشيخ وبين الكنارى الجديد .. شاب فى حوالى الأربعين .. ربما يكبرها بعامين أو ثلاثة .. مزيج من حيوية وفرح ووقار .. يحمل بضع مجلات عربية وأفرنجية تشى ألوانها وورقها المصقول بعالم الثقافة والفن .. إنه يعمل مخرجاً فى التليفزيون .. وبعبارات مكثفة سريعة وودودة ، حكت له كيف رسم القدر لقاءهما ، فهو مشغول بفيلم جديد به مشاهد تتطلب وجود قفص فيه عصفوران حبيسان ! مر صدفة بالمحل فدخل لعله يجد بغيته ، وإذا به يكتشف أن له بغية أخرى أروع وأعظم .. وإذا به يسألها هل تسمحين لى أن أدخل القفص ؟!

من لهجته ونظرات عينيه الراجية أدركت ..

قالت بود .. باسمة : وبعد أن تدخله ؟!

- سأدعوك للدخول معى .

- لكنى لا أطيق السجن مهما كان السبب أو الهدف ..

- لا تعتبريه قفصاً .. اعتبريه عشاً .. كِناً .. ستراً .. يضم المحبين معاً .. ولن نغلق بابه أبداً .. سنفعل مثلما فعل صديقك الشيخ بالقفص الذى أهديته له .. سنتركه مفتوحاً .. يستطيع كل منا أن يخرج أو يدخل فى أى وقت يشاء .. يصبح العالم كله ملكنا !

اهتزت أعطاف الشيخ مرحاً وفرحاً بالحكاية : ما أجملكما .. وما أصدقكما .. من القلب فعلاً أحس بأنكما صادقان .. إنى أبارك للحياة بكما ..

– أرأيـت ؟! (قـالت وهـى تكاد تقـفـز من السـعـادة) كم هو عظيم وجميل ؟! أجمل من كل شباب العالم ؟! إياك أن تغار منه.

وبكل الفـرح الذى امتـلأ به قلبـهـا ، اندفـعت عليـه واحتـوته فى صدرها وقبلته من وجنتيه .. وتبعها الشاب بنفس الحرارة واحتواه بحنـان ، بركـاتك ودعـواتك يا أبانا الجـميل .. وياليتك لا تتركنا هذه الأيام . فنحن على أبواب مشروع سيسعدك بالتأكيد ، فهو فى الأصل من وحيك .

– من وحيى أنا ؟!

قالت مؤكدة بحماس طبعاً يا عمى من وحيك .. تذكر حضرتك أول يوم جئت فيه لتشترى طعاماً لعصافير حفيدتك .. حسبتك يومها جئت لنشترى كنارى بقفصه ، فقلت لى مستنكراً أنك تكره أن ترى طيوراً محبوسة .. وبقية الحوار حضرتك طبعاً تذكره .

– بالطبع .. أذكر كل كلمة قلناها ..

– ها قد جاء الوقت يا عمى لكى أنفذ قراراً طالما تمنيته .. لكنى لم أكن أعرف كيف .. خلاص .. لن أستمر فى حياتى أكثر من هذا سجانة للعصافير ..

اهتزت منه رأسه رغما عنه .. يا إلهى ما هذا الذى أسمع ؟

– أراك تتكلمين جدا ..

- وأصبح القرار فعلاً .. منى ومنه .. ذلك أنه مثلك تماماً ، يكره رؤية أى طائر حبيس .. وهو يؤكد فى فيلمه على هذا المعنى .. جريمة أن نحبس طائراً خلقه الله بأجنحة .. ومن هنا جاءتنا الفكرة .. أن نحول « بيت العصافير » هذا بل قل « سجن العصافير » هذا إلى مكتب عمل لنا نحن الاثنين .. وسأساعده فى كل أعماله .. بقدر ما أستطيع .. وسأتعلم .. مثلما تعلمت من قبل مهنة لم أكن أعلم عنها أى شىء ، أعتقد أن هذا ممكن !

قال مشجعاً ضاغطاً على الكلمات بقوة : بل وستحققين إنجازات كبيرة .. أنا واثق .. لكنك لم تقولى لى (وأشار على الأقفاص المنتشرة بما فيها من كنارى) وكل هذه الكنارى .. ماذا ستفعلان بها ؟!

قالت فاردة كل ذراعيها كما لو كانت تفرد جناحين : سنطلقها .. سنطيرها ..

وأكمل صاحبها .. منبهاً .. كمخرج : ليس فى أى مكان .. وإنما فى إحدى الحدائق المليئة .. بالأشجار .. ولخطورة اللحظة ولمعناها الرمزى العظيم ، فقد قررت أن يكون هذا المشهد هو ذروة لفيلم : الانطلاق الجماعى للكنارى .. وهى خارجة مندفعة من قفاصها إلى الفضاء الرحيب .

هتف الشيخ صائحاً : مدهش .. رائع .. هذا المشهد وحده يرشح أى فيلم لما هو أعظم من الأوسكار !

بشـرك الله بالخـيـر يا عـمى .. وإذن يا ليتك تكون مـعنا سـاعـة التصوير ..

بالتـأكـيد .. سـأكـون مـوجـوداً .. هذه لحظة تاريخـيـة لا يصـح أن تفوتنى وبالمناسـبة ، عندى اقـتـراح بالنسبة لمكان التـصـوير .. فى منطقـتنا هـذه ، وعلـى مـسـافـة بسـيطة من هـنا ، مـشـتل فى غـاية الجمال .. عامر بالأشـجار وبمختلف أنواع النباتات والأزهار ، ويبدو دائمـاً كـمـحـفل لغـنـاء الطيـور .. فـأنا أمـر عليـه فـى الرواح وفى المجىء .. وراح يصـف لهما الموقع بالتفصيل .

صـاحت السـيدة بحـمـاس : آه .. أعرفه جيداً .. هذا المشـتل .. أمر عليه كثيراً ، ولى صـديقة تعمل فيه .

قال الشيخ : إذن فأنت تمرين أيضاً على بيتى كثيراً ..

- معقول ؟! ولا أدرى ؟!

- أجل .. فأنا أرى هـذا المشتل من شرفة البيت .. العالية .

- جميل .. جـميل .. (ولزوجـهـا المخـرج) ما رأيك .. لو أصحبك إلى هذا المشـتل وتعاينه علـى الطبيعة .. أعتقد أنه سيعجبك .. فضـلاً عن الهـدوء الشـامل ، والبـعـد عن الزحـام وضـجـة المرور .. ولو أعـجبك فعلاً ، فستساعدنا الصديقة على الحصول على الإذن بالتصوير .

وإذ رأى الشيخ استجابة صاحبها للرأى ، قال باسماً فى نفسه : ها قد بدأت بحسها الجمالى الفطرى ، وبخبرتها العملية أيضاً تشاركه فى عملية الإخراج وهو متقبل لهذا وسعيد !

وإنى لأتنبأ لها بدور عظيم ستقوم به كزوجة مخرج . لم لا ؟! ما وجه الغرابة ؟! قصة حياتها وتطوراتها تؤكد هذا .. فمن مرحلتها الأولى التى عاشتها وبمنتهى الرضا ، كناريا رقيقة وديعة قابعة فى قفص الزوجية ، إلى مرحلة ما بعد موت الزوج ودخولها قفص الترمل لكنها مضطرة مع ذلك للخروج والمواجهة والصدام بعالم السوق والتجارة كى تبقى على « بيت العصافير » مفتوحاً كمصدر وحيد للرزق وتغطية متطلبات الحياة ، وحققت ذلك بنجاح كبير .. ثم .. أخيراً .. ها هى تلقى بكل الأقفاص خلفها وتفتح ذراعيها .. وكلُّها .. لحياة جديدة مع إنسان جديد رأت فيه ، ورأى فيها ، الإلف المفتقد .. والأروع فى القصة أن تكون فاتحة حياتهما الجديدة مقترنة بدعوة فن رائعة ومصورة لتمجيد الحرية .. حرية الكنارى كرمز لحرية الإنسان .

– اه .. لكم يود أن يقول كل هذا للحفيدة التى سألته بالأمس : هل لو جاء ذكر جديد لنالا ، هل سننسى به شيكو .. وليفها الذى مات ؟! وحينذاك لا تصبح نالا بعد ذلك طائر حب .. « الأسطورة كما حكيتها لى يا جدو .. طائر الحب بعد موت الرفيق يبقى وحيداً وحزيناً حتى الموت » .

لا .. يا صديقتى العزيزة .. لا .. ها هى صديقة عزيزة ، أحب أن أعرفك عليها ، قصة حياتها تثبت عكس هذا .. أجل ليس الموت حزناً هو الذى يصنع طائر الحب .. إنما بعث القلب الحزين إلى الحياة وإسعاده . هو الذى يعطى طائر الحب بهجته وعظمته .. ومع هذا ، فقضيتى اليوم مع « نالا » ليست : هل نحضر لها ذكرا ، أم تبقى مخلصة ووحيدة ؟! قضيتى اليوم مع نالا .. هى حريتها .. فلم أعد على الاطلاق أطيق منظرها .. هكذا .. و ..

- سرحت عنا يا عمنا العزيز ..

- بل كنت سارحاً فيكما أيها العزيزان .. والآن .. أنا لا أستطيع فى هذه اللحظة احتمال سعادة أكثر من هذا .. أستاذنكما .. وهذا هو رقم تليفونى ، كى تبلغانى بموعد التصوير .. و ..

ولمعت فجأة فى ذهنه فكرة أبهجته أكثر ، فهم بأن يعبر عنها ، لكنه أمسك .. « فلأجعلها مفاجأة .. أو .. ربما لا أستطيع تحقيقها ، وإن كنت سأبذل كل ما أستطيع لكى أحققها .. » .

وشد على أيديهما بحرارة .. وخرج .

* * * * * *

يصبح من نافلة القول بعد ذلك أى كلام عن أى شىء ما عدا المشهد الأخير .. مشهد انطلاق الكنارى من أقفاصها إلى فضاء الله الرحيب ..

وها هو الجد يوم ميعاد التصوير ، يدخل من باب المشتل ، لكنه ليس وحده .. بل معه الحفيدة العزيزة فى يد .. والقفص الذى به « نالا » فى يدها الأخرى ..

لقد شرح لها الحكاية والموقف على نحو ملأها بالشوق لأن ترى هذا العالم الجميل المثير .. والأخطر والأكثر إثارة هو ذلك المشهد الذى لا تعرف كيف تصدق أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث بالفعل : فتح أبواب الأقفاص .. كل الأقفاص .. وإطلاق الكنارى .. كل الكنارى .. فى لحظة واحدة إلى الفضاء .. والكاميرا تصوره وتسجله ..

– جدو .. هل بدأ التصوير ؟..

– إنهم يستعدون .. فلنقف فى صمت وهدوء .. ونتفرج . لمحتهما السيدة ، لوحت لهما بسعادة ، وأرسلت للصغيرة قبلة لا تقطع بها الصمت الذى شمل المكان . كان المخرج يقول صائحاً .. موجهاً كلامه من مكانه العالى – إلى كل أفراد فريق العمل .. لهجته مزيج من الرجاء والإنذار :

– لاحظوا شيئاً مهماً جداً ، وخطيراً جداً ، إن اللقطة التى سنصورها لن يمكن إعادة تصويرها مرة أخرى لو أردنا .. فالطيور إذا خرجت وانطلقت ، فلا يمكن إعادتها إلى الأقفاص مرة أخرى .. أظنكم توافقوننى .. فلنحتشد جميعاً .. كل منا يركز فيما هو مطلوب منه .

كان الجد على درجة عالية من الانفعال ، وكان ما يزال ممسكاً بيد حفيدته ، مجاهداً كى يخفف من قوة الضغط الانفعالى عليها .. نظر إليها هامساً : أنظرى جيداً .. لا تفوتك لحظة .. حين تكبرين ستفرحين وتفخرين بأنك شهدت هذا المنظر بالذات .. منظر الخروج الجماعى للكنارى .. فتح الأبواب .. الاندفاع إلى الحرية . الحلم الطويل القديم يتحقق .. الرفرفة فى الفضاء والتنقل بين الأشجار .. على قمم الأشجار .. وسيعرض فى التليفزيون .. ويراه الملايين .. دعوة للحرية .. حرية الطيور .. وحرية الناس .. و ..

وإذا بها تميل عليه هامسة ، وقد شملتها شبه رعشة : جدو .. ما رأيك لو نفتح الباب لنالا .. ونطلقها هى أيضاً .. لتطير مع بقية الطيور .

احتواها .. مقبلاً إياها من رأسها .

– أخيراً .. يا صديقتى .. ويا بهجة شيخوختى .. أخيراً .. وبكامل وعيك واختيارك .. أنت بنفسك التى تفتحين باب القفص وتطلقينها حرة ..

و .. دارت الكاميرا على مشهد من أعظم مشاهد الزمان ..

كنارى الطير .. وكنارى البشر .. فى أروع وأجمل اللحظات .

[٧]

أغنيــة للقلــوب الطيبــة

تكاد تكون هزة روحية ، تلك التى تملكت الجد بعد طيران الكنارى ، وبقيت ملازمة له لفترة طويلة سيطر عليه فيها شعور بالغ الروعة والعذوبة .. أنه هو نفسه أصبح فى حالة طيران مقترنة بنشوة ممتزجة بدهشة !

مصدر الدهشة هو منظر الكنارى ، وخاصة « نالا » لحظة انطلاقها من القفص .. فرغم ثقته القديمة بقدرتها على الطيران ، إلا أنه ما تصور أبداً أن خروجها وانطلاقها سيكون بكل هذه القوة وكل هذا الاندفاع الهائل والمدوى مثل صاروخ كان مثبتاً فى قاعدته وانطلق فى أرجاء الفضاء !

كما أبهجه أكثر وإلى حد الطرب ، سماعه لصوت الأجنحة وهى ترفرف .. لا .. لم تكن رفرفة .. بل تصفيقاً .. أجل تصفيقاً .. فرحا ومرحاً .. كأنما احتفال بالانطلاق وبالصعود إلى أعلى وأعلى . .

كما داخله إحساس غامر بأن « نالا » وبقية الكنارى ، وهى بكل هذا الاندفاع إلى ذرى الأشجار ، إنما كانت تشعر بنشوة .. بل وبلذة حسية .. وأن هذا الشعور ليس غريباً عليه هو شخصياً ، فلديه فى هذا تجربة جد مدهشة وفريدة لا ينساها أبداً !

حدث هذا وهو يركب الطائرة لأول مرة فى حياته ، بعد فترة طويلة وكئيبة من المنع السياسى ، ثم حين جاءت اللحظة التى لا تنسى ، والطائرة ترتفع من على الأرض وتصعد محلقة فى الفضاء ،

إذا به يحس بنشوة ، بل قل بلذة حسية جسدية تشمل كل كيانه ، لكأنما هى لذة جماع واحتضان كونية ساحرة .

هى مرة واحدة حدثت له ، ثم لم تتكرر أبداً .. ومع هذا ، فما يزال فى كل مرة يركب فيها الطائرة يتعجل لحظة الانفصال عن الأرض لعله يظفر بتلك اللذة الساحرة والتى ظل عاجزاً عن تفسيرها ، إلى أن رأى انطلاقة الكنارى تلك ، فأدرك بالمقابل السر : إنها تجليات لحظة الصعود ، وإشراقة الروح فرحاً بالخلاص من أصفاد وأحزان جاذبية الأرض .. الأمر الذى لا يحدث - مثل الميلاد ومثل الموت - غير مرة واحدة .. !!

- آه .. يا صديقتى العزيزة .. (ونظر إلى الصغيرة الواقفة بجواره مستندة بذقنها على سور الشرفة .. سارحة ناظرة إلى بعيد) لكم تدخليننى بصحبتك فى تجارب ، بل ومعارك روحية وفكرية تنعش النفس والجسد على السواء .. آخرها معركة تحرير الكنارى .. وكم هو جميل أنك اكتشفت بالتجربة العملية ، بطلان وزيف ذلك التعبير : « طيور الزينة » أن الكنارى خلقت لتوضع فى قفص ليستمتع الناس بمنظرها ، بينما هى فى الحقيقة تعانى وتتعذب من سجنها .. كما تذكَّر بالتداعى ، عصوراً ازدهرت فيها تجارة العبيد من البشر .. كانوا يصطادونهم بالضبط مثلما يصطادون الحيوانات والطيور ، ثم يقيدونهم بالسلاسل .. وكان تجار النخاسة

والسادة أصحاب الضياع والمزارع يجدون في منظر العبيد جمالاً وزينة .. ويتباهون فيما بينهم : أيهم يملك كماً أكبر من العبيد .. ؟!

ومثلما انتهى عصر اقتناء العبيد ، لابد أن ينتهي عصر اقتناء الطيور (وابتسم لها في سره) .. ولسوف يذكرك التاريخ بأنك إحدى بطلات التحرير .. تحرير الكناري .. وتحرير نفسك أيضاً .. ذلك لأن من يحرر طائراً ، مثل من يحرر عبداً ، يصبح أكثر إحساساً ووعياً بحريته هو نفسه .. !! وصدق من قال في دنيا النضال السياسي : ليست أمة حرة ، من تعيش على استعباد وإذلال أمة أخرى !!

وجذب نفساً طويلاً طويلاً .. أحس معه بقوة في جهاز التنفس .. وخطرت له فكرة ابتسم لها : يبدو أن أجمل علاج للشيخوخة هو إجادة فن مصادقة الأطفال الصغار .

إنهم حدائق الإنعاش التي يجلس فيها الشيوخ ويستمتعون بالهواء الطلق الذي يوسع الشرايين وينظم ويريح دقات القلب .

أجل .. وطوبى لمن يتعلمون من الصغار أكثر مما يتعلمون من الكبار .. فالصغار هم الصوت الصادق والمباشر لنداءات الطبيعة ودليل الفوز في معاركها .

وانتبه فجأة على صوتها .. مفعماً بالود وبالحنين : جدو .. ترى .. أين يمكن أن تكون الآن « نالا » ؟!

- نالا ؟! الآن ؟! (وفرد ذرعيه كجناحين بحماس) إنها تعب من الحرية .. إن العالم كله الآن ملك لها .. وهى طليقة حرة .. تطير من شجرة إلى شجرة ، ومن حديقة إلى حديقة .. بل ومن بلد إلى بلد .. ويمكن أيضا من قارة إلى قارة !! .. الآن « نالا » تستمتع بما لا نستمتع به نحن البشر .. فأنا وأنت لكى نطير من مصر إلى بلد آخر يجب أن يكون معنا جواز سفر ، وتأشيرة خروج ، وأخرى للدخول .. أما « نالا » .. فلا اعتبار على الإطلاق عندها لما يسمى بالحدود .. كله فضاء الله .. والعالم بالنسبة لها وطن واحد .. تروح وتجىء فيه كما تشاء .

قالت بصوت متهدج يشيع فيه الحنين : إننى أتمنى لو تزورنى « نالا » .. ولو مرة واحدة .. تأتى وتقف قليلاً على هذا السور .. ألا يمكن أن يحدث هذا يا جدو ؟!

بالطبع ممكن (قالها مسرعاً وبلهجة تأكيد) لى صديق يعيش فى ألمانيا .. حدثت معه قصة مثل هذه وحكاها لى !!

اتسعت عيناها دهشة وأملاً : حكى لك ماذا ؟! احكها لى أنا أيضاً يا جدو .. (وتوجهت إليه بكلها .. تكاد تدخل فيه .. ومضت تربت عليه كأنه الطفل وهى الجد الكبير) من أجل خاطرى .. ألست تحبنى ؟! .. احكها لى .. الآن .. ونحن جالسان معاً .. ما الذى حدث لصديقك هذا ؟!!

هل كان لديه كناريا وطيرها .. ثم ..

بسط كفه يوقفها عن الكلام : لا .. لا .. أنت هكذا ستفسدين القصة .. القصة بدأت بشكل آخر تماماً .. فالرجل لم يكن لديه قفص به طائر سجين .. إنه من نوعى .. يكره أصلا حبس الطيور .. وكان يعيش وحيداً ، فالأولاد كبروا وتفرقوا فى العالم .. وزوجته ورفيقة عمره الحبيبة رحلت منذ سنوات قليلة .. ولم يعد له من عزاء أو تسلية غير أن يعمل فى حديقة البيت الصغيرة ، أو يجلس تحت إحدى الأشجار ويسرح مع الذكريات !!

فجأة ، هبت على الحديقة ، ريح باردة قوية تطايرت معها أوراق الشجر المتناثرة على الأرض .. وأحس برعشة .. نظر إلى السماء فرأى سحباً ثقيلة طائرة فى الفضاء مع الريح .. آه .. (قال لنفسه) إنه فصل الشتاء يعود ببرده الشديد .. وبعد أيام تتساقط الثلوج .. فلأسرع إلى داخل البيت وأجلس فى الدفء .. أقرأ فى كتاب ، أو أشاهد التليفزيون !!

وبينما هو يخطو نحو البيت ، سمع صوت زقزقات جميلة آتية من الفضاء .. نظر إلى أعلى ، فرأى سرباً كبيراً من الطيور ، مرفرفاً بأجنحته ، ومنطلقاً بسرعة فى اتجاه الجنوب .. ويغنى ..

– إذن فقد بدأ موسم هجرة الطيور .. جماعات جماعات تطير .. عبر وديان وجبال وبحيرات وبحار .. لا تعبأ كما قلنا بأية حدود .. تاركة

خلفها مناطق البرد والصقيع ، لائذة بمناطق الدفء التى تحفظ عليها الحياة . وتبقى هناك حتى ينتهى برد الشتاء ، فتعود طائرة إلى أوطانها الأصلية من جديد !!

فجأة .. سمع طلقة رصاص عالية ، ورأى طائراً يهوى فى الفضاء ، ثم يسقط على أرض الحديقة !!

انقبض قلبه ، ولم يلبث أن سمع نباح كلاب قريبة .. فأدرك على الفور أنهم صيادون ، أسرع وأغلق باب الحديقة بالمتراس .. ثم مضى إلى الطائر المضروب .. وللحظ السعيد .. لم يكن قد مات .. كان مصاباً فقط فى ساقه ، بينما الكلاب كانت تنبح فى الخارج ، مطالبة بفريستها !

همس للطائر المصاب يطمئنه : لا تخف أيها العزيز .. لست أنا الصياد .. بل أنا صديق .. وسأرعاك حتى تشفى تماماً من إصابتك !

وحمله برفق بين كفيه ودخل به بيته .. بينما الكلاب مستمرة فى نباحها الغاضب .

وفى الحال بدأ يعالج الجرح مربتاً عليه بحنان .. كما وفر له الطعام والشراب والمكان المريح الأمين !!

ويوماً بعد يوم ، كان الطائر يتماثل للشفاء ، ولم يلبث أن أصبح قادراً على تحريك ساقه الجريحة ، بل وقادراً أيضاً على الطيران .

أحس الرجل بالسعادة ، وخاطب الطائر قائلاً : تهانئى لك أيها الطائر العزيز على الشفاء .

وفوجىء بالطائر يفرد جناحيه ويندفع طائراً فى اتجاه النافذة ، غير أنه اصطدم بزجاجها المغلق ووقع على الأرض .

- آسف جداً يا صديقى العزيز .. لقد أغلقت الزجاج جيداً لأن البرد فى الخارج شديد ، والثلج يتساقط بغزارة .. سوف نقضى بقية فصل الشتاء هنا .. معاً .. هل تقبلنى كصديق ؟!

أجابه الطائر بنظرة حزينة ، ثم حول عنه عينيه فى بؤس شديد .

قال له الرجل الطيب مواسياً : أنا أعرف سر حزنك العميق أيها الطائر .. لقد انفصلت عن رفاقك الأعزاء .. وأنت الآن بالتأكيد تفكر فيهم .. وربما لك فيهم وليفة حبيبة إلى قلبك ، والآن تشتاق إليها (وخرجت من صدر الرجل تنهدة عميقة) أنا أيضاً كانت لى وليفة .. رفيقة عمر .. لكنها رحلت وتركتنى وحيداً .. دعنا نصبح صديقين .

لم يجب الطائر .. وبدت فى نظراته الكآبة والحزن ..

- آه .. الآن خطرت لى فكرة (صاح الرجل بحماس) فكرة مدهشة .. ولسوف تجد نفسك حالاً مع بقية الرفاق !

ولم تمض ساعة حتى كان الرجل قد اشترى قفصاً صغيراً من مركز تجارى قريب ووضع الطائر فيه ثم ركب تاكسياً وذهب إلى مقر إحدى جمعيات هواة الطيور .. كانت رئيسة الجمعية سيدة لطيفة تفيض ملامحها بالرقة والحنان .. سألها : هل تعرفين يا سيدتى نوع هذا الطائر .. من أى فصيلة يكون ؟!

صاحت بفرح وحماس : أوه .. بالطبع أعرف نوعه .. إنه من طيور « الهاريس » إنها الآن مهاجرة إلى الجنوب .

- عظيم .. عظيم .. وهل تعرفين بالضبط إلى أى بلد من بلاد الجنوب تهاجر ؟

- تهاجر إلى منطقة البحر الأحمر ، حيث دفء الشمس الساطعة .. هناك تبقى حتى آخر مارس وربما أيضاً فترة من أبريل ثم تبدأ رحلة عودتها إلى وطنها الأصلى من جديد .

- شكراً .. شكراً يا سيدتى الإنسانة صاحبة القلب الكبير .

وحمل طائره وخرج .. وفى أول تاكسى قابله ركب وقال للسائق : إلى المطار لو سمحت .

ولم يمر بعض الوقت حتى كان واقفاً على مدخل المطار حاملاً القفص وبداخله طائر « الهاريس » الجميل .. وكان يدعو من أعماقه أن تنجح فكرته .

فجأة .. رأى « طياراً » شاباً .. فى حوالى الخامسة والعشرين ، قادماً بخطوات مسرعة ، مرتدياً زيه التقليدى الرصين .. شكله العام يوحى بأنه على وشك أن يركب طائرته ويطير .. تشجع ونادى عليه بحياء وسأله :

- عفوك أيها الكابتن العزيز .. سؤال صغير لو سمحت ؟!

- تفضل .

ألا تعرف طياراً .. زميلاً لك .. سيطير إلى البحر الأحمر ؟!

- أنا .. (أجاب الطيار ببساطة) سأطير إلى هناك بعد قليل .

- آه .. ياله من حظ جميل .. أنت أيها الطائر محظوظ ..

- ما الحكاية يا عمى ؟! هل تريد السفر إلى هناك ومعك هذا القفص بما فيه ؟!

- لست أنا .. بل هذا الطائر الوحيد الحزين .

وحكى له حكاية طائر الهاريس .

ارتسمت الدهشة على وجه الطيار لغرابة الحكاية .

وقال ضاحكاً : يا لها من فكرة طريفة .. ولكن .

- لا محل لكلمة « لكن » أيها الطيار العزيز .. فأنت أكثر من غيرك تعرف آلام الوحدة وأحزان الفراق عن الأهل والأحباب ..

وهذا الطائر سيموت حزناً إن لم يلحق سريعاً ببقية سربه هناك .

إنه طائر يتمنى أن يركب الطائرة مرة .. نعم .. وتذكر أيها الطيار حقيقة فى غاية الأهمية .. إنه لولا الطيور ، ما كان اختراع الطائرات أبداً .. خذه معك إلى هناك .. ثم أطلقه حراً .

استثارت الفكرة الطيار .. وتحمس لها .. مد يده إلى القفص وحمله عن الرجل بغاية الرفق .

– اطمئن أيها العم العزيز .. إننى أعدك بتحقيق الفكرة .. إنه طائر جميل .. ويستحق المغامرة والتكريم .

ومضى مسرعاً إلى طائرته التى تنتظره ، حاملاً القفص وبداخله الطائر الوحيد .

وهمس الرجل العجوز لنفسه وهو يتتبعهما بنظراته السعيدة المليئة بالرجاء .

وداعاً يا طائرى العزيز .. أرجو لك حظاً طيباً .

وعاد إلى بيته وإلى وحدته من جديد .

* * * * * *

وهنا توقف الجد الراوى للحظة عن الكلام بعد أنه انتهى من الحكاية .. قالت الصغيرة تستعجله وقد بدت كأنما تلهث من متابعة

الأحداث : وبعد يا جدو .. وبعد .. ماذا فعل الطيار .. هل وصل إلى البحر الأحمر وأطلق الطائر هناك .. هل أعطاه حريته مثلما أعطيت أنا « نالا » حريتها ؟!

- لا تتعجل يا صديقتى .. قليل من الصبر ، فما يزال فى القصة فصل جميل قبل أن نصل إلى الختام .

شع وجهها بالفرح : احك يا جدو .. احك .. ليتك تحكى لى كل يوم حكاية جميلة مثل هذه .. هيه .. ما هو هذا الفصل الباقى من القصة ؟!

- هو فصل الطيران عبر سموات أوروبا ، والبحر المتوسط .. ثم سواحل أفريقيا وأرضها ونيلها العظيم .. وللحظ كانت الرحلة التى يقودها الطيار هى رحلة سياحية (برلين - الغردقة - برلين) فمضى عند كل بلد أو جزيرة هامة يحلقون فوقها يشرح ويصف أجمل ما فى المكان .. ولم يكن يشرح للسياح بقدر ما كان يشرح أيضاً لطائر الهاريس .. أغرب وأجمل سائح من نوعه فى الطائرة !

وحين اقترب من البحر الأحمر ولاحت له من أعلى مياهه الفيروزية الساطعة ، راح يخاطب الطائر بفرح ويبشره بالوصول .. ويذكر له أجمل وأهم الأماكن التى عليه أن يراها .. ويتوقف عندها : الخلجان والجبال والجزر المرجانية وعالم الأحياء المدهشة تحت الماء والتى تصعد فى لحظات إلى السطح وتتنفس الهواء وترمق الفضاء والسماء .

أخيراً .. ها هى الطائرة تهبط إلى الأرض وترسو فى يسر وبراعة يصفق لها السائحون .. أما طيارنا العزيز ، فقبل أن يهبط وتلمس قدماه الأرض .. يقف على باب الطائرة المفتوح .. ويفتح باب القفص فيندفع الطائر الحبيس مرفرفاً منطلقاً فى الفضاء الرحيب .. ويخاطب الرجل العجوز على البُعد وهو فى غاية السعادة : ها قد أوفيت بوعدى .. أيها الإنسان العظيم صاحب القلب الكبير .

وتقفز الحفيدة من فرط الفرح وتصيح : فعل الطيار مثلما فعلت أنا .. أعطى الهاريس حريته مثلما أعطيت أنا « نالا » حريتها .

ويهز الجد الراوى رأسه موافقاً ومؤمناً : يبقى بعد ذلك الختام السعيد ، والذى من أجله حكيت لك هذه الحكاية .. ففى صباح أحد الأيام ، صحا الرجل العجوز الطيب من نومه على زقزقة طيور ، وإذا به يرى طائرين وليفين يتواثبان ويمرحان وينقران فى زجاج النافذة بمرح .

لم يصدق عينيه .

كان هو نفس طائر الهاريس الذى أركبه الطائرة التى انطلق منها حراً فى بلاد الجنوب ليلحق برفاقه .. ها قد عاد مع وليفته الجميلة .. وأخذا يغنيان للرجل الطيب .. أغنية الشكر والعرفان .. ولم يعد الرجل بعد ذلك وحيداً .. فقد صنع الطائران عشاً لهما بين أفرع الشجرة التى يحلو للرجل الجلوس فى ظلها .. والتى يسميها شجرة الذكريات .

صاحت الصغيرة قافزة بسعادة : إذا « فنالا » يمكن أن تعود وتزورني .

- وتغني لك أغنية الحب والاعتراف بالجميل .

- آه يا جدو .. كم أنت جميل .. ليتك تحكي لي كل يوم حكاية مثل هذه .. يا ليت .. ودفنت رأسها في صدره .. فاحتضنها بحنان .. يستمد منها طاقة الحياة .. والأمل في الغد الجميل .

[٨]

وحــــوش وكنــــارى

كان الجد جالساً فى الشرفة وسط مجموعة أشجاره ونباتاته الصغيرة ، سارحاً بأفكاره عبر النهار والضفتين والصحراء ، وإذا به يرى فجأة أمامه منظراً وقف له شعر رأسه وتسارعت دقات قلبه ، كما اكتسحه خوف رهيب مقترن بالذهول : كيف يمكن أن يصدق ما يرى ؟!

كانت حفيدته الصغيرة قادمة عليه .. منقبة بثياب سوداء فضفاضة وطويلة أخفتها كلها من قمة شعر رأسها إلى أطراف أصابع قدميها .. كذلك كفاها الصغيران كانا مختفيين داخل « جوانتى » من القماش الأسود ، صرخ فيها مستنكراً : ما هذا الذى فعلته بنفسك ؟

جاءه صوتها مهللاً من خلف النقاب كأنما تبشره بأعظم نبأ :

– لبست النقاب يا جدو .. لبست النقاب .. وسأدخل الجنة .

أصابته رعشة : أى جنة ؟!

جنة ربنا يا جدو .. ألا تعرف جنة ربنا ؟!

عاود الصراخ وقد تضاعف ذهوله وغضبه : من الذى قال لك هذا ؟! من المجرم المتآمر الذى فعل بك هذا ؟ .. وكيف صدقت .. أنت بالذات .. بعد كل ما صنعناه وحققناه سوياً .. أنت التى حررت الكنارى وأطلقته من قفصه باختيارك وبإرادتك .. ليس نقاباً هذا الذى ترتدينه ، بل كفنا .. أبداً لن تدخلى الجنة ، بل الجحيم .. نار الجحيم .. أفيقى أرجوك .. واسمعينى جيداً .. فإنهم ..

وقبل أن يكمل ، إذا بثلاثة يقفزون عليه منقضين من أعلى .. كأنما من فوق فروع أشجار .. لحاهم طويلة ، وسراويلهم قصيرة .. وأمسكوه من خناقه وعيونهم ينبثق مها الشرر .

- أيها الزنديق .. ألا يكفيك ما فعلته بها ؟! أعطاك الله منحة كان يمكن أن تكون نعمة عليك في شيخوختك ، فإذا بك أيها الشرير تفسد عقلها .. ومن أفسد أمَةً صغيرة ، فقد أفسد أُمَّةً بأكملها .

وإذا بالصغيرة المنقبة تسأل ببراعتها المعتادة : ماذا تعني أمة يا أميرى ؟!

نهرها « أميرها » بصرخة تحذير أرعبتها وانكمشت داخل نقابها : قلت لك اقلعي عن هذه العادة الشيطانية .. عادة الأسئلة فهي التي ستفتحك على أبواب جهنم .

صاح الجد الشيخ معترضاً .. مخاطباً الصغيرة المنقبة : لا .. ليس صحيحاً ما يقوله .. فالأسئلة كما اتفقنا هي مفاتيح المعرفة .. المعرفة كنوز مفاتيحها الأسئلة .

- لا تصدقي هذا الزنديق المخرف .. ولولا أنه جدك ونعمل لك خاطراً لأجهزنا عليه في لحظة .. واعلمي علم اليقين أن الأسئلة هي التي تفتح باب الضلال .. ذلك أن كل شيء مذكور في الكتاب .. وما فرطنا في الكتاب من شيء أيها المجدف .. وستلقى حالاً عقابك الرباني .

وإذا به يجد مسرح الأحداث وقد تغير .. وأنهم واقفون فى حديقة الحيوانات .. وأن بيوت الوحوش تفتح والأسود والنمور والضباع تخرج منها ، بينما - فى نفس الوقت - ظهرت مجموعة من المنقبات بالسواد يستدعين الطيور الحرة بالإشارات كأنما بقوة السحر ويدخلنها الأقفاص ويغلقنها عليها .

عاود الصراخ وهو يحاول مستميتاً التملص من قبضاتهم : ليس معقولاً هذا الذى تفعلونه .. تطلقون سراح الوحوش .. وتحبسون الطيور ؟! .. أى منطق ؟!

انطلقت قهقهات اختلطت بزئير الوحوش : لسنا نحن الذين نحبس الطيور .. بل « هى » شيختهن ومعها تابعاتها الجديدات .. إسألها .. فهى صديقة قديمة لك .

وأشار له على امرأة طويلة كبيرة الجرم منقبة ، كنت تسميها : السيدة كنارى .. الآن اسمها الشيخة كنارى .. هل تذكرها التى حرضتها على غلق بيت العصافير وإطلاق الكنارى وارتياد عالم الفن ؟!

صرخ مفجوعاً : لا أصدق .. لا يمكن أن تكون هى .

وإذا بالأمر يصدر لها من « الأمير » فتكشف لبرهة خاطفة عن مساحة من وجهها .. وإذا بها هى .. ولكن فى نظراتها الخجل والبؤس .. والدموع تسح من عينيها وسواد الكحل يجرى خطوطاً على

وجهها تحت النقاب .. بينما الحيوانات المفترسة كانت لا تزال تخرج من أقفاصها وتجرى متلمظة فى كل اتجاه وتزأر .

صاح عليهم بتعاسة محذراً : ستخرج إلى المدينة وتأكل فى الأهالى .

قال الأمير باسماً فى ثقة وشماتة : لا .. لن تأكل إلا أعداء الشريعة .. هؤلاء الذين يشيعون الانحلال والفوضى بأسم الحرية والديمقراطية .

صرخ مستميتاً : بل أنتم أعدي أعداء الكتاب والشريعة نصاً وروحاً .. (وتوجه بكلامه إلى المنقبة الصغيرة ضارعاً) اخرجى من هذا الكفن مثلما أخرجت « نالا » من القفص .. مزقيه بأسنانك وأظافرك . إياك من الاستسلام لهم .

- أيها الزنديق .. تركناك إلى الآن حياً .. لعلك تعتبر .

وارتفعت يدٌ ممسكة بموسى طويلة مسنونة .

- إنه الإنذار الأخير .. هل سمعت .. الإنذار الأخير .

قال متحدياً متصدياً : هيا افعلوها فأنا غير عابىء ولا خائف ، حتى ولو كان ينتظرنى مصير الشهيد فرج فودة .. أو المطعون فى رقبته العظيم نجيب محفوظ .. وللعلم فالاثنان صديقاى .. وإنى لأفخر بهذا رغم أن ذلك سيشدد من عدائكم لى .. لكن الموت غيلة وقتلاً لم

يعد يخيفنى ، فأنا عشت بما يكفى ، ولو أن حبى وعشقى للحياة يجعلانى أطمع فى الخلود بها .. ذلك لأنى دائماً أحلم بالغد .. أن أرى مسيرة التطور العظيمة إلى أين .. أما أنتم فتحلمون بالأمس .. الأمس البعيد .. الأمس الذى مات وانتهى ولم تعد لمحاولة بعثه أى جدوى سوى تعطيل مسيرة الحياة !! .. وأنتم تتهموننى بأنى أفسدت عقل الصغيرة .. حفيدتى . أجل أفسدتها ولكن من وجهة نظركم .. أفسدتها لأنى كنت دائم التحريض لها على استعمال أعظم ما وهبه الله للإنسان : عقلها .. أن تكثر من الأسئلة .. وألا تخاف أثناء السير فى المرتفعات من السقوط .. بل عليها أن تجيد حفظ توازنها .. أهديتها ذات مرة صورة فتاة جوالة سائرة على طريق مديد وعلى ظهرها تحمل كرة مرسومة عليها الكرة الأرضية .. الحلم بالخروج إلى العالم والطيران عبر الحدود مثل الطيور .. علمتها الرقص مع ظلها على الرمل كما وعدتها بأن أقدم لها فى أكاديمية الفنون فى مدرسة الباليه .. لعلها يوماً تصبح « باليرينا » عالمية ترفع اسم مصر عالياً أو بطلة سباحة ماهرة مثل « رانيا علوانى » .. أو عالمة ذرة متفردة مثل « سميرة موسى » .. أو ..

وإذا بصرخة هى فى صميمها زئير انطلقت من حنجرة الأمير : خسئت أيها الزنديق .. تستغل سماحتنا وديمقراطيتنا فى ترويج أضاليلك وأفكارك المنحلة .. خذ هذه .

وإذ هوت ذراعه بالموسى فى اتجاه رقبته ، انتفض الشيخ صاحياً من النوم وأنفاسه تتلاحق .. وهمهم لنفسه : الحمد لله .. الحمد لله .. كان حلماً .. كان كابوساً .. ترى أين الصغيرة ؟! أريد أن أطمئن عليها .. مجرد أن أراها .

وهبط مسرعاً من سريره واتجه مباشرة إلى حجرتها فوجدها خالية والبيت كله مغمور بالصمت .. عاوده القلق والخوف .. ربما يكون قد حدث لها أى مكروه .. ونظر فى ساعة يده .. لم يأت بعد موعد رجوع أمها من عملها .. أسرع إلى الشرفة فلمحها جالسة فى ظل شجرة « اليوكا » الكبيرة .. مستغرقة بكليتها فى لعبتها الجديدة التى اشترتها لها أمها منذ أيام .. لعبة الأتارى .. كومبيوتر صغير فى حجم الكف الكبير ، بإصبع واحد تدق على أزراره فتضىء وتصدر أصواتاً .. وفى نفس الوقت تصنع تكوينات وتشكيلات مختلفة .

غمره شعور بالارتياح وبالطمأنينة .. انقشع الكابوس .. إلا أنه حرص على ألا تراه الصغيرة وهو على هذه الحال من اختلاط المشاعر والأفكار .

- أجل .. أريد فى هذه اللحظة أن أستوحد وأتأمل هذا الذى حدث .. فلماذا هذا الحلم ؟! وما المناسبة ؟! ومن أية أعماق مستترة دفينة خرج ؟!

وبمنتهى الهدوء ، ودون أن تشعر به الصغيرة تراجع عائداً إلى حجرته ، ثم إلى نفس الكنبة التى غفا عليها غفوة القيلولة ، يريد أن يستعيد اللحظة بالضبط التى كان عليها قبل أن يغفو ويهاجمه الحلم ، وما أن رأى المذياع الصغير الأحمر « الترانزستور » الملقى على الوسادة والذى تعود أن يسمع فيه أخبار العالم قبل النوم ، حتى أدرك سر ومصدر الحلم أو الكابوس : هذا الخبر المأساوى والهزلى فى نفس الوقت عن قادة الثورة فى أفغانستان المسمين بالطالبان ، والذين أصدروا ضمن موقفهم المعادى لعمل المرأة وتعليمها ، قراراً بتجريم كل من تلبس حذاء بكعب عالٍ ، وأن كعب أى حذاء لأنثى لا يصح أن يزيد ارتفاعه على سنتيمترين اثنين على الأكثر .. كذلك أطوال الثياب التى يرتدينها ومساحة الفتحات التى يسمح للعيون أن تطل منها ، لابد من أن تحسب بالمللى .

أية مهزلة ؟! وإذا كان الأمر أصبح يجرى فى أفغانستان على هذا النحو المضحك المبكى ، فالخبر الذى جاء عن الجزائر فى نفس النشرة ، مغرق فى المأساوية والسواد الكامل ، حتى بدت حكاية تنقيب النساء والبنات وتعليبهن فى البيوت مجرد لعبة من ألعاب التعصب والغباء الفكرى .. أما الشر الأبشع والأفظع فهو تلك المذابح الجماعية التى باتت هذه الجماعات تُجريها على نحو من المستحيل وصفهم بأنهم بشر ، إنما هم وحوش فى شكل آدميين .. بل إن الوحوش لا تلجأ للافتراس إلا إذا كانت جائعة أو مدافعة عن نفسها .. إنهم

يذبحون الأم كما يذبحون الوليد الذى يرضع من صدرها .. ثم يكملون وليمة الشر والجنون باغتصابها .

ليس غريباً إذن ، بل طبيعى جداً ، أن يأتيه هذا الحلم وينقض عليه ، وقد اتخذ من تنقيب الحفيدة الصغيرة والصديقة الكبيرة رمزاً جاداً للتعبير عن بئر الخوف الكامن فى أعماقه .. وإذا بالسؤال الخطير يدق رأسه : هل يمكن أن يحدث هذا أيضاً فى مصر ؟! يستولى هؤلاء على السلطة فيها ، ويصيغون حياتنا وفق رؤيتهم هم ؟!

– لا .. لا .. مستحيل .. مصر شىء آخر (قالها مؤكداً بقوة) :

– (وبابتسامة ساخرة مرة) ألم تكن تقول هذا عن الاتحاد السوفيتى ؟! لم تكن تطيق كلمة نقد عليه ، باعتباره صاحب أخطر ثورة اقتصادية وإنسانية فى القرن العشرين ؟! كنت من فرط إيمانك بتجربته والتعصب البالغ لها ، ترفعه فوق مستوى الخطايا والأخطاء .. ثم إذا بك ترى بعينيك وتسمع بأذنيك خلال زيارتك الأخيرة له ، ما وصل إليه الحال فيه .. حين التقيت مع رجال إحدي لجان الحزب ، وكانت مفاجأة مفجعة لك وأنت ترى أناساً ليس فيهم ذرة من ثورية أو حيوية .. بل حزباً يدخل فى مرحلة الأفول والشيخوخة .. وكان ذلك فى مرحلة التحول التى قادها جورباتشوف .

– (مقاطعاً) .. ولو .. مصر شىء آخر .

– يا عزيزى خفف قليلاً من رومانسيتك وتفاؤلك .. ألم يصلوا فى مصر إلى ساحة الفن ونجحوا فى إغراء الفنانات والفنانين بهجر التمثيل والغناء والتوبة عن كل ما يمت إلى شتى أنواع الفنون بصلة ؟!

ألم يفرضوا سلطانهم ورقابتهم على شواطىء البحر فى الصيف ، فلم تعد امرأة أو فتاة بقادرة على النزول إلى البحر إلا وهى مثقلة بملابسها .. فأضحى منظر البحر والشاطىء آية فى التخلف والبؤس وقلة الذوق ؟!

وفى الجامعات ، ألم يحرضوا طالبات كلية الطب على مقاطعة معامل التشريح حتى لا يرين أجسام الموتى عارية ؟!

وفى المساجد ، ألم يفرضوا على كل مئذنة أربعة ميكروفونات .. ودعك من ضجتها بالنهار ، إنما .. تصور وحشيتها وضراوتها وهى تنطلق فى هدوء الفجر فتفزع الأطفال والشيوخ والعاملين المجهدين فى نومهم .. ولقد كتبت أنت مقالة فى هذا المعنى وأسميتها : إنهم يغتالون الفجر .. ويعثوا إليك برسالة تهديد ؟! .. هل نسيت ؟!

– لا .. بالطبع لم أنس .. ورغم هذا فما زلت محتفظاً بتفاؤلى .. ذلك أن تجريتهم فى ساحة الفن باءت بالفشل .. فقد انحسرت تلك الموجة وعاد البعض منهن على استحياء ، وإن احتفظن بالحجاب وليس النقاب .

وانظر إلى الفنانة الكبيرة ، الشابة أبدا ، هدى سلطان .. حين اختارت ذلك الحجاب الأبيض البسيط الأنيق القريب من « اليشمك » والذى حين رأيتها به فى أحد الاحتفالات ، صحت عليها : أهلاً بأجمل محجبة فى مصر ، ويا لضحتكتها السعيدة حينذاك ! وحين سألوها ذات مرة فى التليفزيون : هل صحيح أنك بعد هذا الحجاب ستعتزلين الفن ؟! استعاذت بالله من الشيطان وقالت : وماذا يبقى لى بعده ؟! الفن نور الحياة وبهجتها .. الفن هبة ومنحة من الله .. سبحانه وتعالى ..

أرأيت ؟! مصر شىء آخر .. لا يمكن لمجموعة من الفرق الدموية المتطاحنة أن تستولى عليها .. غير أن المأساة لم تعد فى استيلائهم على السلطة .. المأساة حقاً أنهم بما يفعلون يعطلون مسيرة التقدم ، فكلما انطلقنا إلى الأمام مع العالم خطوة جذبونا بالعنف وبالرعب خطوتين إلى الوراء .. وما أكثر ما تمنيت أن أحدث حفيدتى الصغيرة عنهم ، وأسلحها من الآن إزاء خططهم ، لكن سنها الغضة الصغيرة تزال لا تسمح لها باستيعاب تلك الدراما العنيفة الجهنمية .

فضلاً عن أننى أنا نفسى أصبحت أرى القضية أكثر تعقيداً مما تبدو فى ظاهرها .. فالحكاية لا يصح أن تنتهى بمجرد إدانة هؤلاء وتعليق دم الضحايا برقابهم هم وحدهم .. إنما السؤال الذى يجب أن يوجه : من أين جاءت هذه الفرق ؟! أو من الذى غرس فى أفرادها كل هذا التعصب وشكل عقليتهم على هذا النحو ؟!

يقيناً لم يأتوا من الهواء .. ولم يصنعوا أنفسهم بأنفسهم ، بل هم صنيعة ظروف وأنظمة وقوى خفية من مصلحتها أن يقتتل أبناء الوطن الواحد حتى يذبحوا بعضهم بعضاً .

وها نحن نرى المأساة تتسع وتصبح ظاهرة عالمية ، بحيث إن الذين أسسوها أو ساندوها ، باتوا يكتوون بنارها . وإذا فالعالم كله بات مسئولاً عن مواجهتها .. والتصدى لها بكشف جذورها ، وليس أنسب من إعلان هذه المواجهة مع بدء احتفالات الليلة الكبيرة .. ليلة رأس السنة الأولى من القرن الواحد والعشرين .. أجل .. سأتبنى من الآن هذا الشعار .. و ..

- جدو .. هل تكلم نفسك ؟!

لتنتبه عليها واقفة بباب الحجرة ترقبه .. ندت عنه ضحكة سعيدة .. وفتح بلهفة ذراعيه لها .. مجيباً : فعلاً .. كنت أكلم نفسى .

استثارتها الإجابة : وماذا كنت تقول لنفسك ؟!

- تريدين الحقيقة ؟ .. كنت أتكلم معك أنت ؟!

- معى أنا ؟! .. وماذا كنت تقول لى ؟!

- كنت .. أقول لك .. أشياء للأسف لن تفهميها إلا وأنت كبيرة .

- أنا الآن كبيرة يا جدو .. حضرتك دائماً تقول لى هذا .. أننى أصبحت كبيرة .

– نعم .. أنت كبيرة فعلاً .. بل تعرفين أحياناً أشياء أنا لا أعرفها ولا أفهم فيها .

– مثل ماذا ؟!

– مثل هذا الجهاز الذى فى يدك .. أتسمحين لى به لحظة ؟!

– تفضل .

وإذا راح يتجول بعينيه بين أزراره وعلاماته ومؤشراته وقعت عيناه على سطر من ثلاث كلمات بالانجليزية بخط دقيق جداً Tomorrow Never dies .

اهتزت مشاعره طرباً وفرحاً .. لكأنها الفأل السعيد المقابل لجو الحلم وهواجسه المعتمة التى كان يعيشها .

صاح بسعادة مردداً الجملة بالعربية : غداً لا يموت أبداً .. جملة رائعة مدهشة .. كيف لم تقرئيها حتى الآن وأنت تعرفين الإنجليزية ؟! هيا اقرأى .. (تو مورو .. نيڤر .. دايز) ، تومورو .. يعنى غداً .. نيڤر يعنى أبداً .. دايز يعنى يموت .. أى غداً لا يموت أبداً .

نظرت إليه بعينيها الواسعتين متسائلة : وماذا يعنى يا جدو .. غداً لا يموت أبداً ؟!

بعض الأسئلة تنبعث صعوبتها من فرط بساطتها وبديهيتها ..

وبدا له أن المزيد من التبسيط ربما يعقد المعنى أكثر .. وفكر أن يهرب مؤقتاً من الإجابة إلى موضوع آخر ، غير أنه تذكر شبح « الأمير » إياه وهو ينهرها فى الحلم لأنها كثيرة السؤال .. ولأن الأسئلة هى همس الشيطان للإنسان .

لا .. لسوف يدخل مع نفسه التحدى حتى يفهمها .. وعاود المحاولة :

- لو أنك طلبت منى أن أشترى لك - مثلاً - علبة ألوان .. ووعدتك قائلاً : حاضر .. سأشتريها لك .. أمس .. ماذا سيكون ردك ؟!

- ردى .. غير معقول يا جدو .. لأن الأمس راح .. انتهى .

- عظيم .. ولو قلت لك سأشتريها لك غداً ؟!

- سأفرح طبعاً .. لأن غداً جاى .. بكرة جاى .

- برافو .. وإذن غداً لابد قادم .. غداً لا يموت أبداً .

وأحس فجأة بثمة مشاعر تعتمل فى صدره : ما رأيك . عندى رغبة فى الخروج الآن .. أنا وأنت .. نقوم بنزهة معاً .

صاحت قافزة : ياريت يا جدو .. إلى أين سنذهب ؟

كان يرغب فى نزهة تعطيه شحنة من الحياة ومن الحيوية تعوضه عن هزة الحلم الكئيب ..

- ما رأيك .. نزهة فى النيل .. نركب قارباً .. ونجدف .. نعم .. وسأعلمك التجديف .. تملكها الطرب .. لفته بذراعيها وصارت تقبل فيه : شكراً .. يا جدو .. شكراً .

وبينما هما يستعدان للخروج ، دق جرس التليفون .. رفع السماعة ، وإذا بمفاجأة رائعة لم تخطر له على بال .

السيدة كنارى ؟!

- معقول ؟! كنت على بالي أيتها العزيزة ، ليس فقط على بالى ، بل أيضاً فى أحلامى .

- وأنت أيضاً والله يا عمى .. لا تغيب عن بالنا وعن أحاديثنا .. وإنى أحدثك الآن كى أدعوك لتحضر عرضاً خاصاً للفيلم : طيران الكنارى .

- أسميتموه هكذا ؟! مبروك .. اسم جميل وموحى .

- لكن المفاجأة هى أن حضرتك والحفيدة الجميلة ستظهران فى لقطة الختام .. والكنارى ينطلق مرفرفاً من الأقفاص .

مثلما تكسح أشعة شمس الصباح ركامات الظلام ، محا النبأ الجميل من نفسه كل كآبات الحلم وهواجس العقل الباطن .. وأحس بشهوته للخروج والتحليق تزداد .. وداخله اليقين من أن غداً بالفعل أجمل .. أجل .. وأن غداً لا يموت أبداً .. ومهما كان الشر فى

العالم .. فلسوف ينتصر الخير فى النهاية .. وسأبقى كما يسموننى : المتفائل العالمى .

ولم تنقض نصف ساعة حتى كان هو والحفيدة فى قارب صغير .. يجدف تارة ، وتارة أخرى يعلمها الإمساك بالمجداف .

– أنا فرحانة يا جدو فرحانة .. هل صحيح سأرى نفسى فى الفيلم وأنا أطيّر الكنارى .. وأنا أعطيه الحرية ؟!

– طبعاً صحيح .. غداً سيحدث هذا .. وغداً لا يموت أبداً .. أليس كذلك ؟!

ومضيا يجدفان والقارب ماض بهما مع التيار .. وضحكة الصغيرة الجميلة تملأ فضاء النهر الرحيب .

أســـد البحـــر
يفقـــد شعـــره

خرجتُ من بيت زوجة صديقى والسر المفجع الرهيب يكتم على أنفاسى،انطلقت أخترق شوارع المدينة البحرية متجهاً إلى « الكورنيش » لعل موجات الهواء وامتداد مساحات البحر تعيد إلىّ بعض هدوء نفسى فأستطيع التفكير بروية فى هذا الذى سمعته وعرفته .. ما أفظع النتائج التى ينذر بها !

كان السؤال الذى يتردد ويتخبط فى رأسى : كيف يا صديقى الشامخ الوقور فعلت هذا ؟! .. كيف يا من أطلقت عليك ذات يوم لقب أسد البحر ، بسحر هالة الشعر العظيمة التى تعلو رأسك ، وخطواتك المتمهلة المهيبة وأنت تسير على الرمل بمحاذاة البحر مملكتك العظيمة ؟! .. كيف يتردى النجم العالى إلى الهاوية بل إلى المستنقع على هذا النحو المخجل والذي ينتفى معه أى عذر أو تبرير سوى تلك المقولة الدرامية الشهيرة : إن البطل المأساوى يحمل بداخله من الأصل بذرة سقوطه وفنائه ؟!

ومع هذا ، فقد وجدتنى أحمل نفسى أنا الذنب : أنى ذهبت إليها فى بيتها دون علم أو استئذان منه . كان حسن النية هو الذى دفعنى ، ناسياً أن الطريق إلى جهنم كثيراً ما يكون محفوفاً بحسن النية ! كانت رغبتى النابعة من محبتى العميقة له .. أن أقدم له مفاجأة جميلة غير منتظرة .. أن يفاجأ بزوجته التى تركت له البيت منذ عدة أشهر – عرفت ذلك منه وأنا أخبره بالتليفون من القاهرة أنى قادم لقضاء يومين بالاسكندرية – يفاجأ بها تدخل عليه وعلى وجهها

ابتسامة ود ونسيان لسببت الخلاف أو الخصام .. فما أكثر ما تشاجرا من قبل وتصالحا ، عبر أكثر من عشرين عاماً هي عمر زواجهما .. كأنما – هذه المشاجرات هي منشطات لابد منها لدفع الملل عن حياتهما الزوجية وبعث الدفء والحماس لقلبيهما !.. تلك كانت المرة الأولى التي وجدتني مندفعاً للقيام بمحاولة اصلاح ذات البين بينهما .. بروح متبسطة متفائلة .. وقد انبثقت الفكرة في ذهني وأنا ما زلت بالقطار السريع (التوربين) المتجه إلى الأسكندرية ملهوفاً على قضاء بضعة أيام راحة واستجمام بها .. أمام البحر .. ثم تكتمل السعادة والمتعة بصحبتهما – هو وهي – معاً كالعادة !! .. لهذا ، ما أن هبطت من القطار حتى ركبت تاكسيا واتجهت مباشرة إلي بيتها .. معتمداً على محبتها لي .. محبة أخ وصديق له في قلبها وقلب زوجها منزلة فريدة نابعة من تلك العلاقة الإنسانية الحميمة التي تشكلت بين أسرتين تعودتا على اللقاء مرة كل عام في الصيف ، وفي شهر أغسطس بالذات على شاطيء البحر .. وياله من لقاء ننتظره جميعاً بشغف طوال العام .. العائشون في القاهرة .. والعائشون في الاسكندرية .. الرجال والنساء .. والصغار والكبار .. لقاء سنوي كان يتحول إلي مهرجان سعيد نحتفل فيه أول ما نحتفل بالصحبة .. ثم بعد ذلك بالوجود وخفق الحياة متمثلاً في اللعب والجري على الرمال والسباحة في البحر ، ومتعة الصيد من فوق تلك الجزيرة الصخرية رائعة التشكيل وغير البعيدة عن الشاطيء !

تلك المرة لم نكن فى الصيف . كانت إحدى زياراتى الشتوية التى يحلو لى القيام بها وحدى ، مجذوباً بسحر المدن البحرية فى فصل الشتاء ، حيث لا ضجة ولا زحام كتل المصيفين والغرباء .. متعة كبرى أجدها فى المشى وحدي مسافات طويلة على الكورنيش . ناظراً إلى البحر .. هادئاً أو صاخباً ، مستمتعاً بلذع موجات الهواء وأحياناً طرطشات الموج فى صداقة مع الصخر .. ويا !روعة الأفق لحظات الغروب وقرص الشمس النارى يغطس كشهيد فى اللجة بالتدريج .. وما أجمل طيور النورس وهى تقيم حفل صيدها البهيج فوق مياه الميناء الشرقى القديم !! .. ثم بعد ذلك أو قبله ، لابد من زيارة له فى شقته العالية بإحدى العمارات القديمة ، العتيدة الناهضة على الكورنيش .. مع ذلك الاستقبال الفياض بالفرح الذى كانت تلاقينى به دائماً زوجته الودود الجميلة والصغيرة !

آه .. ها هى الكلمة المحورية والخطيرة فى الموضوع قد خرجت منى عفواً .. وبلا أى قصد على الإطلاق : الصغيرة !

كانت تصغره على الأقل بعشرين عاماً .. ومع هذا ، ما فطنت يوماً إلى هذا الفارق ، فقد كانت هيئتها العامة توحى بسن أكبر من سنها .. فقد منحتها الطبيعة نضجاً جسدياً مبكراً ، مع امتلاء أنثوى يشى بسخاء الحياة .. ومع هذا فقد كنت أراها دائماً محوطة بهالة من الرضا العميق .. ذلك الرضا الذى كنت أتذكر معه جملة لأحد الكتاب العظام : أيها الرضا .. إننى أبحث عنك .. إنك جميل مثل فجر الصيف !

كانت .. حين تزوجا - فى الخامسة عشرة ، أما هو ، فقد تجاوز الخامسة والثلاثين .. ومع هذا لم يكن لهذا الفرق أية أهمية .. هى نفسها أحبت وجود هذا الفرق ، بل إنها كانت فى حاجة إليه حتى ولو لم تكن تعي ذلك بوضوح ، فليكن العوض عن الأب الذى مات .. والصدر المرتجى .. والحماية .. والباب المفتوح على الحياة ! .. لقد كان سن الخامسة والثلاثين فى ذلك الوقت يشكل ميزة وإغراء وحلماً .. بل وتأكيداً لذلك الشعور الذي يخامر كل أنثى فى بدء مرحلة التفتح والبلوغ .. خاصة تلك التى منحتها الطبيعة .. رغم صغر السن ، هذه التكوينة الجسدية الفائرة المتعجلة للنضج والاكتمال مع استدارة بدرية فى الوجه وغلظة بل فلطحة فى الشفتين ، الأمر الذى جعله حين رآها لأول مرة يحس بأن دقة القلب التى اعترته هى دقة المصير التى ربطته بها !

وكانت هى التى حكت لى عن لقائهما الأول هذا .. حكته لى مرتين وبنفس السعادة ، ناسية أنها حكته لى من قبل : كان يوماً شبيهاً بأيام كرنفالات النصر أو مناسبات الأعياد القومية . إذ كانت المدينة التى أجرت سباقاً كبيراً فى البحر تحتفل بابنها الذي فاز بالمرتبة الأولى . رأته وهو يخرج من البحر .. ضاحك الوجه .. جسده الهائل مع عضلاته النافرة العظيمة يقطر ماءً ، هو ماء السعادة . كان الكل يجرى إليه ويسلم عليه .. وكنت أنا مع عمى - صديقه وزميله فى العمل - وقبل أن أطفىء شوقى لأن أسلم عليه ، رأيته ينظر لى ثم يسأل عمى وقد توقفت عيناه على : تبقى مين الحلوة دى ؟!

وعلت بى أمواج البحر وسفينة السعادة تمضى بنا .. فقد وجدتنى فى نفس ذلك اليوم أسير كالمسحورة فى صحبته ، هو المحتفل به ، شاعرة وكأنى أنا الأخرى محتفل بى !! صنع هو هذا الجو من حولى .. صرت فى الحفل منسوبة إليه وليس إلى عمى الذى جئت من الأصل فى صحبته .. ملأتنى هذه المشاعر بالفرح .. وكان يهمس فى أذنى : أنا سعيد لأنك سعيدة .. أنا حققت اليوم انتصارين : الأول فى السباق . والثانى أنى قابلتك . وهذا هو الانتصار الأعظم .

وبعد شهور قليلة ، كانت الصغيرة الحلوة قد أصبحت زوجته .. زوجة البطل !

* * * * * * * *

أقول .. ما أحسست أبداً بذلك الفارق الكبير فى السن بينهما من اللحظات الأولى التى تعارفنا فيها ، ونحن واقفون على شاطىء البحر .. ثلاث أسرات صغيرة تتلاقى لأول مرة ، وصديق مشترك له ولى يقوم بالتقديم والتعريف .. ما زلت أذكر الخاطر الذى مر بى وأنا أسلم عليه أول مرة : لقد أوحت لى هيئته بأنه ربما يكون من هواة المصارعة اليابانية .. كان عريض المنكبين .. شاهق الطول كثيف شعر الرأس والصدر كأهل الغابات . لولا ابتسامته المفرطة فى الطيبة والتبسط مع سلامه الرقيق الودود وهو يعلن بلا أية مواربة فرحته بهذا

التعارف الذى كان لابد أن يحدث من زمن .. منذ أن قرأ لى إحدى قصصى منشورة فى مسلسل .. لقد دخل قلبى بهذه اللمسة !؟ .. كل هذا خلق المعادل الروحى لتركيبته الجسدية .. بل وخيل لى أنه يكاد يعتذر عن ضخامة جسده بهذه الابتسامة وهذا الترحيب القلبى ! .. وبدا لى أنى اكتشفت سر شخصيته حين قام الصديق المشترك بالتعريف قائلاً : الاستاذ (........) مدرس أول تاريخ .. بمدرسة (........) فلا شىء أعظم من علم التاريخ معلماً للإنسان فضيلة التواضع والبساطة ! هكذا فكرت لحظتها .. كما أحببت صوته الأجش بإيقاعه الهادىء المتوافق مع تلك المساحات الفضية المشربة بشىء من الزرقة تكسو شعره وفوديه .. موحية بثقة خفية شديدة بالنفس ..

وفكرتُ بفرح : ما أجمل أن يكون هذا الرجل رفيقاً لى فى السباحة .. إن المرء ليحس معه بالأمان وبالثقة ضد مفاجآت البحر .

ولأننى من النوع الذى لا يكاد يرى البحر منبسطاً أمامه ، حتى يسمع نداء خفياً يدعوه وتتفتح كل مسام الجسد والروح ، وأفكر على الفور بالارتماء فى أحضان أمواجه !

وكان الموج لحظتها وادعاً ناعماً فقلت متشجعاً ، ناظراً إليه بعشم : منظر البحر لا يقاوم .. ما رأيك فى قليل من العوم ؟!

تلقف الاقتراح وقال بحماسة : ولماذا قليل ؟! .. ما دمنا سننزل إلى البحر ، فلننزل إلى البحر .. لن نعوم فقط .. سنصطاد سمكاً أيضاً !!

قلت مبتهجاً : هل سنأكل اليوم سمكاً ؟!

قال بلهجة اعتذار : صيد اليوم لهيرا .. لى فترة وأنا مقصر فى حقها !!

- ومن هيرا هذه ؟! سألت بفضول .

أجابت الزوجة مسرعة بالرد وبابتسامة لطيفة : هيرا .. قطة تعيش معنا فى البيت .. أكيد .. سيعجبك شكلها !

عدت أردد الاسم بإعجاب : هيرا .. هيرا .. اسم جميل لقطة .. وهو اسم على ما أذكر لإبنة إحدى زوجات الإله « زيوس » .. كبير آلهة الإغريق !

قال موجهاً كلامه إلى زوجته : ألم أقل لك إن هيرا هذه لا يمكن أن تكون قطة من نسل عادى ؟!

قالت : وهل أنا أنكرت هذا ؟ ! أنا أحبها .: تماماً مثلما تحبها أنت .. وربما أكثر !

فى تلك اللحظة تذكرت نقطة حزن عميق صامت فى حياتهما .. أنهما لم ينجبا حتى الآن .

أسرعت قائلاً .. محاولاً إضفاء جو من البساطة والفرح المشترك : لابد أن أرى هذه القطة ذات الانتماء الإلهى !!

قال : بعد الصيد سنذهب إليها بما نصطاد . أرجو أن يكون حظها اليوم وفيراً !

وألقينا أنفسنا في البحر !!

كان منظره مبهراً وهو واقف ببنيانه الشاهق ، ووجهه البرونزى الذى تلمع عليه قطرات الماء ، كذلك شعره المفضض الكثيف الملبد بالماء .. خصلات خصلات .. متدلية على جانبى وجهه .. أقرب ما تكون إلى لِمّة الأسد .. وما أجمل حركة ذراعه وهو يلقى بخيط السنارة الطويل إلى مسافة بعيدة في المنطقة العميقة المحيطة بالصخرة وقد انفصل تماماً عنى وعن كل شئ ما عدا التركيز في مراقبة الخيط بانتظار الرعشة الخاطفة المرتقبة .. ثم فجأة ، وبأسرع من لمح البصر إذ به قد جذب الخيط رافعاً الغابة إلى أعلى بنعومة وبراعة مايسترو عظيم .. وإذا بسمكة مدهشة جميلة تلمع وترقص فزعاً في الفضاء ..

قال : يبدو أن فألك اليوم طيب على هيرا .. وفرحت لهيرا إذ راحت السمكات تتوالى وتصاعد شغفى لرؤيتها !

في ذلك اليوم رأيتها - هيرا - فبعد أن انتهيت من السباحة والصيد ، عرض على ، وكان متهلل الوجه والروح لوفرة الصيد ، أن أرافقه إلى البيت ونشرب فنجالاً من القهوة .. فقبلت الدعوة متحمساً وذهبت .

ما زلت أذكر .. ما أن فتح باب الشقة حتى وجدتنى أمام مشهد من مشاهد التلاقى العاطفية الحميمة التى تأسر قلبى إذ أجدها بين الإنسان والحيوان .. كانت بشعرها الناعم وألوانها الناصعة تتقافز حوله وتتمسح فيه وعيناها تتبعان بلهفة ذلك الكيس الذى تفوح منه رائحة السمك الطازج وهو بسعادة وافتخار - يأمرها بالتريث والهدوء .. ثم يربت عليها ويمر بشعرها بحنان ، طالباً منها الصبر حتى يعد لها وليمتها العظمى ! .. وفكرت لو لم يكن عاد إليها بهذا الصيد ، أكانت فرحتها بقدومه أقل حرارة ؟

وسرعان ما جاءنى الجواب بعد أن أخذها إلى المطبخ وجهز لها الوليمة التى التهمتها بشراهة واستمتاع شديدين .. وتذكرت الحقيقة الأليمة : أنه هو وزوجته لم ينجبا حتى الآن . أفيكون هذا نوعاً من التعويض؟!

كنا جالسين نشرب القهوة فإذا بى أراها داخلة علينا .. بخطى متمهلة متثاقلة بفعل الوجبة التى تناولتها ، ونظراتها شاخصة إليه .. نظرات حب وامتنان ، ثم قفزت ورقدت بجواره على الكنبة التى كان يجلس عليها ، ملتصقة به .. وخيل لى أنها تريد أن تتخذ من فخذه وسادة تضع رأسها عليه وتنام .. بينما جعل يمر بأصابعه على رأسها .. وخلال شعر جسدها وهى مستنيمة لهذا وفى غاية السعادة والارتياح !

قلت : واضح أنك تحب هيرا كثيراً !

قال : ليس حباً .. إنما .. تستطيع أن تقول : هى مسئولية !

ضايقنى التعليق أو التحفظ : ولِم لا يكون حباً ؟!

قال باسطاً كفه وقد انعقد جبينه : أنا لا أحب استعمال هذه الكلمة كثيراً !

- أى كلمة ؟!

- كلمة الحب !

تلقائياً ارتسم لى وجه زوجته .. ذلك الوجه البض الناعم فى لون قمح الصيف ، والباسم دوماً منذ أول مرة رأيتها ، وبعدها لم تخيب أبداً ظنى .. فلم يحدث أن افتقدت معها هذه الابتسامة .. بل فى كل مرة كان يطالعنى ذلك الصف الأمامى الجميل من الأسنان والبارز قليلاً على نحو يغرى بالنظر مانحة الدنيا من حولها ابتسامة حب ورضا .. أجل .. الرضا .. ذلك الذى ازداد إحساسى بنبله وعظمته بعد أن عرفت أنهما لم ينجبا ! .. أبداً لا تفقد ابتسامتها .. لكأنما فلسفتها فى الحياة هو الرضا بكل ما يحدث فى الحياة ومن الحياة وعلى استعداد لأن تستوعب شرورها وآلامها !

أما هو - على النقيض - عيناه فى الأغلب بعيدتان . شارد ومتجهم على الدوام .. ولم أستغرب أو أستنكف هذا من رجل دارس

لأحداث التاريخ .. وعلى علم بزلازله وأعاجيبه ! لكن . الذى كان يستوقفنى فى علاقتهما ، هى تلك الغيمة التى كانت تعبر عينيه وهو يتحدث معها أمامنا وحديثه معها دائماً قصير ومقتضب .. الأمر الذى جعلنى أتساءل فى نفسى : أيكون هناك سر خفى .. أو تركيبة قدرية خاصة به ، تجعله يتحفظ مع كلمة الحب كثيراً ؟! .

قلت بجدية شديدة : ألا تؤمن بالحب ؟!

قال ببساطة : لا أومن بالأشياء الزائلة .. والحب مثل كل شىء يزول .. لا أحب أن أعيش مرارة الفقد !! والآن أخرج من رأسى بأفكارك هذه . أنتم أيها الكتاب لا أمان لكم !

وضحك ليزيل سحابة الجهامة التى حطت على جلستنا فبادلته الضحكة ، وأقصيت كل فضول خالجنى !! لئن كان بداخله أبعاد خفية مجهولة فعلى احترامها .. وحسبى منه هذه الصحبة الصيفية ، وهذا الحب الذى يتدفق به كل كيانه نحو السباحة .. وكذلك عالم الصيد .. ثم هذا الشعور الإنسانى النبيل بالمسئولية نحو قطة هى بكل المقاييس عادية لولا تلك المجموعة الرائعة من الألوان التى يموج بها شعرها الطويل الناعم !

وهبت فجأة موجة هواء من قلب البحر لم نتبين مدى قوتها إلا بعد أن سمعنا زجاج النافذة يصطك بشدة ، فانتبه واقفاً وهرع مسرعاً إلى النافذة ليثبت زجاجها .. ثم قال بعد لحظات وهو ينظر عبر النافذة : هل تحب أن ترى المنظر من هنا ؟

- بالطبع .. وأسرعت إلى جواره .

إنها النافذة الوحيدة في شقتي التي تطل على البحر ولولاها لاختنقت وأحسست أني في مقبرة (وأشار بكل ذراعه) هذه هي الميناء الشرقية القديمة .. وهذه قلعة قايتباى .. وهذه .. مئذنة جامع سيدى المرسى أبو العباس . إنها بالنسبة لى نافذة الحياة ! (ثم ابتسم وقال ناظراً ومشيراً إلى أسفل) الفضل فى ذلك لهذا البيت الصغير الملاصق لنا ، وهو روضة أطفال من دورين اثنين فقط .. الحمد لله أن الإنسانيات ما زالت باقية عند البعض .. ومع هذا فإنا لا أكتمك سراً .. إننى منذ سكنت هذه الشقة منذ أكثر من عشرين عاماً ، وأنا أحمل هم أن أستيقظ ذات صباح ، فأجدهم يهدمون هذا البيت ويقيمون مكانه برجاً يحجب المنظر !

قلت نافراً من الصورة : فال الله ولا فالك .. وسوف تظل الإنسانيات باقية !!

وانتبهت على القطة تدور حول قدميه وتتمسح فى ساقيه ، فانحنى عليها وحملها إلى صدره ومضى يمسح على شعرها بحنان !

قلت وقد لمسني المنظر بقوة : وهذا دليل على بقاء الإنسانيات فى عالمنا .. قل لى .. هيرا هذه .. كم سنة عمرها ؟

قال : تقريباً أربع سنوات .. (ومضى يتذكر بعض وقائع يؤكد بها صحة هذا التقدير .. إلا أننى عرفت خلال ذلك حقيقة بالغة الغرابة

عن هيرا هذه : إنها لم تخرج ولا مرة واحدة من الشقة رغم أن الباب كثيراً ما يكون مفتوحاً على مصراعيه أمامها !!

أبداً لم تتجاوز العتبة .. بمحض إرادتها واختيارها) !

قلت مستثاراً بهذه الحكاية : وماذا عن موسم الرغبة ؟! الرغبة الجنسية ؟!

قال بهزة طفيفة من كتفه : لم يحدث أن أعلنت عن هذه الرغبة .. هى مرة واحدة أحضرنا لها ذكراً فارتعبت وبدت فى حالة يرثى لها ، فأعدناه إلى صاحبه .. وكانت هذه هى تجربتها الأولى والأخيرة مع الذكور !

قلت مستغرباً : أو ليس هذا شيئاً ضد قوانين الطبيعة ؟!

قال بشىء من الضيق الممزوج بروح الفكاهة الساخرة : وهل أنا يا أخى المسئول عن تطبيق قوانين الطبيعة وتحقيق رغبات الكائنات ؟! .. ثم إن الخروج أحياناً على القانون يشكل نوعاً آخر من القانون .. ذلك الذى نسميه بقانون الصدفة أو قانون الاستثناء .. هيرا من هذا النوع المتسامى على تلك الرغبة .. إننى أحس دائماً فيها بكائن علوى .. طاهر ونقى .. إحساس أفتقده فى كثير من البشر !! ومضى يواصل التربيت عليها بحنان !

هذه العلاقة الغريبة والمليئة بالمتناقضات بينه وبين القطة ، وكذلك بينه وبين زوجته .. والتى كثيراً ما جعلتنى أرى فيه أساساً لشخصية

إنسانية ذات أبعاد فنية وروائية .. هذه العلاقة ، هل يمكن أن أجد فيها تفسيراً ، أو شيئاً من التفسير لتلك الضلالة التى انتابته .. ولذلك الخلل الهائل الذى أصابه فى الرؤية والتقدير .. فأقدم على هذه الفعلة الشائنة التى كشفت عنها زوجته ؟! .. إنها ليست مجرد فعلة .. إنها تحمل معنى التآمر والخسة !

وعدت أخاطبه فى سرى ، وأنا أخرج من شارع إلى شارع ، أتعجل الوصول إلى الكورنيش كى أستعين بهواء البحر على ذلك البؤس الخانق الذى تمكن منى : كيف يا صديقى - يا بطل السباقات . يا من كنت أسميك أسد البحر .. بقوامك العظيم وهيئتك الموحية بالمهابة والكبرياء !! .. كيف قبلت على نفسك هذا .. أن تهبط بنفسك إلى هذا الدرك المهين ؟!!

ليتنى ما ذهبت إليها فى بيتها . ولا قمت بهذه المحاولة التعسة .. !!

* * * * * *

حين بلغت الكورنيش جلست على أقرب مقعد ، ومضيت أجذب أنفاساً عميقة أغسل بها روحى مما أصابها من إحباط وكآبة !!

ها هو البيت الذى يسكنه على الرصيف المقابل بالدور السابع لى بعد حوالى نصف كيلو متر من جلستى .. وهو الآن فى انتظارى .. غالباً فى الحجرة الوحيدة التى بها نافذة تطل على البحر ..

وهيرا قابعة بجواره .. تؤنس وحدته .. « .. أم أحدثه بالتليفون وأعتذر عن الذهاب متعللاً بأية حجة ، وبهذا أتفادى لقاءه وأهرب من الخطيئة التي ارتكبتها .. خطيئة المعرفة التي لابد ستنتهي بطردي من جنة صداقتنا .. أجل .. يقيناً لو عرف أني عرفت .. سيكون ذلك نهاية عهد الصداقة بيننا . جنتنا التي كنا ننعم بها !! وأشعلت سيجارة أحرق بها صدري وأستعيد الحادث من أوله .. منذ أن أخذت التاكسي من محطة.سيدي جابر واتجهت مباشرة إلى بيتها .. آملاً أن أنجز المهمة التي كنت أتصور أن الاثنين - هو وهي - يتوقان لحدوثها .. لا أنسى الفرحة التي شع بها وجهها ، بل وكل كيانها ، أول ما فتحت الباب ورأتني .. ولولا خصيصة التحفظ المتأصلة فيها ، لأخذتني بالحضن وبلا استئذان .. شفيعها إحساس عميق متبادل بالأخوة والثقة الصافية التي لا تشوبها أبسط شائبة .. وقد دفعني ذلك الشعور إلى التفاؤل والتعجيل بفتح الموضوع .. إلا أنني ما كدت أبدأ بالتمهيدات الأولى ، حتى فوجئت بملامحها تريد وتأخذ تعبيراً غاضباً شرساً ، قاطعة على الطريق مانعة إياي من أن اكمل كلامي .. أكثر من هذا وجدتها تضعني موضع الاتهام - اسمع يا أستاذ (........) دعك من رومانسيتك هذه . أنت طيب اكثر من اللازم . أنت لا تعرفه على حقيقته .. أنا وحدي التي أعرف حقيقة أعماقه .. أعماقه البشعة !!

ألجمتني المفاجأة .. ولم أدر بماذا أرد .. وأذهلني اكثر تغير ملامحها ، حتى أنني وجدتني أمام إنسانة أخرى .. عدوانية

وشرسة .. وخطرت ببالى فكرة الأقنعة .. وتذكرت قناع الرضا .. ذلك الذى رأيتها به طوال مواسم صحبتنا الصيفية الماضية .. أكان ذلك الرضا قناعاً .. وليس طبيعة وصدقاً ؟! .. ورفضت بقوة هذا الإحساس .. بل هى التحولات التى تصيب الإنسان والكائنات جميعاً .. وعلى أن أتقبلها وأتعاملها معها برحابة قلب الصديق الذى لم يفقد هدفه الأصيل من الزيارة ! ..

ولم ألبث أن وجدتها وقد انخرطت فى نوبة قاسية من البكاء .. كان كل جسدها يهتز معها .. ولولا تلك الحساسية البالغة في علاقتى بزوجات أصدقائى لضممتها بقوة إلى صدرى أوقف النشيج وأربت عليها بحنان وإشفاق أعوض اليتم الذى تعيشه من الصغر ، وأمسح عن عينيها الدموع التى كانت زيارتى هى السبب المباشر لها !!

نهضت واقفاً فى انتظار أن تخف نوبة البكاء لأستأذن وأعلن نية الخروج .. وإذ بها تتوجه لى بعينيها الدامعتين ، محاولة التحكم فى نوبة النشيج : قل لى أرجوك .. هل أنا حقاً إنسانة سيئة ؟! هل تصرفاتى مثيرة ومغرية للرجال ؟!

هل تعتقد أنى من الممكن أن أخونه ؟!

تملكتنى قشعريرة : أعوذ بالله .. كيف تنطقين بكلام مثل هذا أنت يا رمز الطهارة والبراءة والرضا الجميل فى مجموعتنا !!

وعادت تهز رأسها جينه وذهاباً في مرارة : جحيم .. جحيم .. لقد تملك منه ميكروب الشك فحول حياتنا إلى جحيم !

– الشك ؟!

– نعم .. وفي البدء كان ميكروباً صغيراً ظننت أنه ذلك الهاجس الطبيعي الذي نسميه بالغيرة النابعة من خوف المحب على محبوبه .. فتقبلته برضا .. بل وبفرح خفي .. إلا أن ذلك الميكروب راح مع الأيام يتضخم ويتحول إلى وحش سرطاني يمسك بخناق حياتنا كلها ويفسدها ويدمرها .. وكان أول ما أصاب هي علاقتنا الخاصة الحميمة !! .. لقد بات يحاسبني .. ليس فقط على نظراتي ولفتاتي ، بل وأيضاً على لحظات شرودي وسرحاني !! .. كان فارق السن الذي لم يكن له في أيام زواجنا الأولى أية أهمية ، بل كان أحياناً موضوعاً للاعتزاز وللتباهي .. هذا الفارق – بعد أن احتفلنا بعيد ميلاده الخامس والأربعين .. وأنا في الخامسة والعشرين – أصبح دون أن أدرك شبحاً خفياً يلاحقه ويملأ رأسه بالهواجس والمخاوف .. حينذاك أصررت على أن أساعده على تجاوز هذه الأزمة ..

ذات يوم ، كان واقفاً بالنافذة الوحيدة المطلة على البحر .. صامتاً شارد النظرات ، فتحركت نفسي بالحنين لأن أشاركه الوقفة وتلك المشاعر المجهولة التي يموج بها صدره .. اقتربت منه .. ومددت

ذراعى لألفها حول كتفه ، وإذا به ينفضها عنه كما لو أن أفعى لدغته وصاح بصوت كالفحيح : أبعدى عنى .. لا تلمسينى بيدك هذه !!

أصابنى ذهول : إلى هذه الدرجة .. لا تطيق لمسة يدى ؟!

صرخ فى وجهى وقد أطل من عينيه بريق مخيف : اذهبى وضعى يدك على كتفه ..

– كتف من ؟!

– هذا الذى كنت تجلسين بجواره فى الترام .. ترام الرمل .. فى الدور الثانى .. وتضحكين معه من قلبك ؟!

ما هذا الذى يقوله ؟! .. نعم أنا أعود بترام الرمل كل يوم بعد خروجى من عملى .. ولكن من هذا الذى يتحدث عنه ؟! .. آه .. وتذكرت واقعة حدثت معى عفواً وأنا عائدة بالترام .. حين خلا المقعد المجاور لى فى إحدى المحطات .. وإذا بأحد الركاب الواقفين يحتله ويجلس فيه .. ثم وإذا بأحد الركاب الواقفين يحتله ويجلس فيه .. ثم وإذا بى أمام مفاجأة ، أن الذى جلس بجوارى هو زميل لى فى العمل .. فاعتبرناها مصادفة لطيفة ضحكنا لها .. ثم مضينا نتحدث فى أخبار العمل !!

فهل هذا يعنى أنى فجرت واستهترت بكل القيم والأخلاق المطوب من الزوجة أن تراعيها !! ما الذى كان يجب أن يكون تصرفى عليه فى مثل هذا الموقف ؟! أأترك مقعدى وأنهض على الفور متعللة

بأى عذر كاذب ؟! لقد خطر لى ذلك بالفعل ، غير أنى أستسخفتها .. أية إهانة سأوجهها للزميل ، ولنفسى أيضاً !! .. إننى أجلس مع نفس هذا الزميل فى مكان العمل كل يوم .. كل يوم .. نعمل ونتحدث ونتبادل الأخبار وكثيراً ما نضحك .. فما الفرق .. ما وجه الغرابة ؟!

وإذا به ينفجر غضباً : فى مكان العمل آه .. ممكن .. مجرد زميل .. ولابد بتحفظ أيضاً .. أما خارج العمل ، وعيون الناس عليك .. كتفك فى كتفه .. وسعيدة جداً حضرتك وأنت تتأملين شاربه الأشقر وشعره المفروق وصدره المفتوح .. يكاد يكون فى سن أبنك لو كنت أنجبت .. كان عليك أن تتذكرى هذه الحقيق لكى تخجلى من تصرفك هذا .. لا تريدين أبداً أن تصدقى أنك لم تعودى صغيرة .. كان يوماً أسود .. يوم وافقت على أن تخرجى وتشتغلى .. ولكن بعد ماذا ؟!

أتعرف ماذا كان رد الفعل عندى ؟! ضحكت .. وقهقهت بأعلى صوتى .. وأكاد أقول بسعادة رغم بشاعة الإهانة (وكان هذا هو بداية الخلل ومعرفة الطريق إلى الطبيب النفسى) .. فقد همس لى الهاجس بأنها غيرة البطل على الصغيرة الحلوة التى يملكها .. غيرة البطل الذى أصبح يتشكك فى بطولته بعد أن خرج من البحر فى آخر سباق دون أن يكمله .. هزمه الموج بعد أن كان دائماً هو المنتصر .. غيرته - وهو الذى تجاوز الخمسين - لا يمكن أن تكون غيرة عادية وعلى أن أستوعبها وأسامحه فيها .. ولهذا وجدتنى أضحك بسعادة ، وإذا بكفه تهوى على وجهى بصفعة وحشية ألقتنى على المقعد القريب

منى .. ويطبق على يكاد يخنقنى : تضحكين .. بدلاً من أن تنظرى إلى وجهك الكريه هذا فى المرآة وتبصقى عليه !!

ولم أنظر إلى وجهى ، بل رحت أنظر إلى وجهه .. كأنى أراه لأول مرة . لم يكن هو .. اختفى بطل البحر .. لفته الأمواج وأكلته .. مضى الآن عليه سنوات وهو معتزل .. لم تعد غيرة بطل .. بل غيرة إنسان زايلته البطولة من زمن .. ويريد تأكيد بطولته على أنا .. بتدميرى .. بإفقادى ثقتى بذاتى . ليست البطولة مع البحر وحدها التى افتقدها ، بل أيضاً معى !! وتلك كانت العقدة الت تبلورت وتجسمت فيها المأساة .. أننا .. أنه لم .. لم يعد .. صرنا ننام فى حجرتين منفصلتين .. (وأغمضت عينيها حياء وعذابا) .. لم أكن أريد للكلام معك أن يصل إلى هذا الحد .. لكن ذلك أصبح ضرورة لكى تعرف أصل العدوانية التى باتت تسيطر على تصرفاته معى !! .. ومع هذا فقد استبسلت فى الاحتمال .. إلا أنه كان يقابل ذلك بمزيد من التوجس والشك والعدوان وحدث لى انهيار .. كان بداية طريقى الى إحدى المصحات النفسية .. (وجزت على أسنانها وازداد بريق عينيها تأججاً) لكنى لن أسمح له ان يعيدنى إليها مرة أخرى .. لن أسمح له .. فقد شفيت والحمد لله .. هو الذى سيذهب إليها .. سيحل به الانتقام الإلهى .. وسيعيش من بعدى فى ندم لا شفاء منه أبداً !!

انقبضت روحى إلى حد التعاسة .. قلت لها راجياً .. غير فاقد الأمل : القلب الكبير يسع أخطاء وخطايا الآخرين .. وأنت قلبك ..

قاطعتني بسخرية مرة : كلام كتاب وأدباء . كف عن طيبتك هذه . هل تذكر حين كتبت عنه قصة وخلقت منه بطلاً لا مثيل له فى الحياة ؟! هل نسيت حين شبهته وأنت تصف خصلات شعر رأسه وشاربه بأسد البحر مع أن البحر ليس له أسود ؟!

قلت مسرعاً : وكنت أنت أول من أبدى إعجابه بها .

- هذا صحيح .. لأنه كان حبى .. بعين الحب كنت أنظر إلى كل ما يبدر عنه من أخطاء .

قلت متشبثاً بالأمل : وسيبقى بطلك الحبيب ، وستنقشع كل السحب . أنت ما زلت تحبينه . أنا واثق !

بسطت كفها فى وجهى رافضة مستنكرة : بل أكرهه .. وحتى لو كانت هناك ثمة شعرة حب كافحت من أجل الإبقاء عليها ، فقد أجهز هو عليها بفعلته الشنيعة بل قل بمؤامرته الخسيسة التى قام بها .. والتى يستحيل على العقل أن يصدقها أو يتصور حدوثها .. ومع هذا فعلها .. (وسترت وجهها بكفيها) فعلها !

صحت عليها وقد اشتعل فضولى : ما الذى فعله ؟ آية مؤامرة هذه ؟! قولى لى .. لا تبقينى فى الضباب أكثر من هذا ..

وخرج السر المفجع الرهيب من صدرها

* * * * * *

إننى ما زلت حتى الآن أحس بالدوار ينتابنى ، كلما استرجعت تفاصيل سرهما المأساوى ، والذى باحت لى به وهى كالفاقدة نصف عقلها .. فقد وجدتنى أدور حول نفسى وحولها .. وأقول : مستحيل .. غير معقول .. بطل البحر .. معلم التاريخ .. يفعل هذا ؟! .. كيف يا أيها الصديق الذى كنت تحتل فى قلبى أعلى المستويات .. كيف تفعل هذا ؟!! .. وقد تمنيت لو أنى استطيع تكذيبها فى نفسى .. لو يساورنى الشك فى صدق ما قالت .. غير أن الواقعة . أو الجريمة ، أو المؤامرة كما أسمتها ، كان من المحال على خيالها أن يختلقه وتنسبه إليه زوراً وبهتاناً ..

إنه السقوط الأعظم .. يا أسد البحر !

* * * * * *

- أنا لا أحبك .

هذه الجملة المكثفة الصغيرة التى قالتها له ضمن حوار ساخن ملتهب بينما كانت تجمع ملابسها وتعد حقيبتها لتبتعد عنه وعن البيت فترة ، أو ربما يكون خروجها من البيت ومن حياته إلى الأبد .. هذه الجملة التى انطلقت من صدرها وقذفت بها فى وجهه . كانت هى الفتيل المشتعل الذى فجر الشحنة الكامنة المزمنة فأطاحت بكل شىء .

- « أنا لا أحبك » .

« قلتها له وزلزلت الأرض زلزالها .. كيف واتتنى الجرأة .. أنا البنت الصغيرة المفعوصة أن أقول لبطل البحر .. لأستاذ التاريخ .. أنا لا أحبك !! ..

أنت ؟! لا تحبيننى ؟! ها .. ومتى إذن اكتشفت هذه الحقيقة ؟!

- لم اكتشفها .. كنت أعرفها من أول يوم جئت وطلبت يدى من خالى .. كان الحب آخر شىء أفكر فيه .. كانت الطيبة والإنسانية تكفى .. أما الحب ، فقد أوهمت نفسى أنه سيأتى بعد الزواج .. وبالفعل فتحت قلبى .. لكنك أبداً لم تعطنى الفرصة أن أعيش معك حلم البنات .. وياما تمنيت أن أقول لك من قلبى : أحبك .. لكنك كنت دائماً كالسد أمام فيض مشاعرى .. من أول يوم معك وأنا كالمجندة فى ثكنة عسكرية .. كل خطوة .. كل نظرة .. كل لفتة .. لابد أن تكون بحساب ونظام .. حتى جفت كل مشاعرى نحوك ..

- ولهذا تريدين الآن ان تخرجى إلى صديقك الأشقر الصغير الذى لو كنت أنجبت من يوم أن تزوجنا لكان ابنك فى مثل سنه .

- ها أنت تؤكد لى أن الحياة معك باتت مستحيلة .. وأن صنفك لا يمكن لأى إنسان يحترم نفسه أن يحبه .. نعم .. لا أحبك .. بل ولم أحبك فى أى يوم أو فى أية لحظة من اللحظات !

وإذا به يقهقه ساخراً : لا تحبيننى الآن هذا جائز .. أما أنك لم تحبينى من قبل .. وعلى الاطلاق .. فأنت كذابة فى هذا .. كذابة ولدى ما يثبت ذلك .. تكذبين لكى تبررى لنفسك خروجك للولد الصغير ! هل لشهرين نمنا فيهما منفصلين ، تنسين ملاحم العشق والذوبان التى كنت تسبحين معى فيها ..

- لم يحدث .. أنت تتوهم ..

- أنا أتوهم ؟! إذن سأذكرك بها .. (وهرع إلى مكتبه وأخرج من أحد أدراجه الخاصة شريط تسجيل لوح لى به ..) هل تحبين سماع صوتك وأنغامك وأنت تقولينها لى ؟

وأدار الشريط .. وفوجئت بأنه سجل فى السر لحظة لنا الفراش..

صرخت وقد اقشعر جسدى : حقير .. مجنون .. ولا حتى المجنون يفعل هذا ..

وبصقت على الشريط الدائر فأوقفه ..

كرهت نفسى .. وكرهته .. وكرهت الحياة كلها !

* * * * * * *

بقدر بشاعة فعلته ، كان إحساسى ببشاعة فعلتى أنا الآخر ، إنى ظللت وراءها حتى باحت لى بالسر المروع .. ولسوف أتلقى

عقابى ، فمن الآن سأمضى حاملاً سراً تنوء بثقله نفسى ، كما تلاحقنى تفاصيل صورته وقد أخذ شكل الملثات أو المجرم المتآمر المحنك وهو ينفذ جريمته بمنتهى الدقة .. أولا وهو يعد جهاز التسجيل المناسب ويجريه فى الخفاء ضمانا للوصول إلى النتيجة المبتغاة .. ثم .. وقبل اللحظة التى يريد صيدها .. لحظة التلاقى الحميمة والنشوة فى أوجها .. وعرى النفوس على آخر المدى .. قبلها بدقائق ، أو ربما بثوان ، سوف يسرق اللحظة وينزلق تحت السرير وينتقى موقعاً استراتيجياً خفيا ويدس فيه الجهاز .. مفتوحاً ودائراً ليسجل اللحظة وما يدور فيها !!

فهل أنا بعد هذا قادر على الذهاب إليه فى بيته حيث يعيش وحيداً مع « هيرا » نشرب القهوة كالعادة ونتحدث فى السياسة وفى التاريخ وفى الحياة بشكل عام .. محال يا (ن . ع) فإن ملامحك الآن فى عينى مختلطة .. والبحر العظيم الذى كنت بطله أصبح أمامى مختلطاً بلون الدم .. لون الجريمة .. لون الجنون .. كيف يا بطل البحر يا سيد الأمواج ، كيف تركت نفسك تهبط الى هذا الدرك الدميم ؟! أى امرأة تستحق أن يمتهن الانسان نفسه بسببها إلى هذا الحد المزرى ؟! ولماذا ؟! لكى تثبت لنفسك أنها كانت بالفعل تحبك ؟! .. فلتذهب يا أخى هى والحب إلى الجحيم ، وليبق لك كبرياؤك وتعاليك فوق هذا الضعف المرذول ، فوق هواجس الغيرة والشك وتهاويل الخوف من زحف غول العمر الذى طالما حدثتنى عنه بشكل ضاحك

لكنه فى الحقيقة كان يحمل إحساسك بالمأساة المقبلة .. وأنت تقول لى ذات مرة ، وكنا جالسين على الكورنيش والدنيا غروب يوحى بالشجن وبالرحيل .. تقول لى صورة غريبة احتلت خيالك ..

- تصور الأسد .. ملك الغابة .. أعظم من فيها وأكثرها جلالا ومهابه .. تصوره وقد جزوا شعر رأسه .. تاجه العظيم الذى يتباهى به وهو يدب فى أرجاء الغابة واثقا .. متمهلاً .. تصور شكله حينئذ .

زعروراً .. ولا يساوى !!

ولحظتها هزتنى الصورة ببلاغة رمزيتها وتعبيرها .. ماذا كانت المناسبة لقولها .. لا أذكر الآن غير انطباعى الذى بقى مع هذه الصورة الدرامية زمناً طويلاً !! .. يقيناً كان يعبر عن هم عميق يرقد بداخله !

ها هو الرمز قد فسر نفسه بنفسه .. وها هو يبدو لى وقد جز شعره بيده ، وأصبح يدب بخطى بطيئة داخل شقته .. وحيدا إلا من هيرا التى تتبعه وقد تضاعف إحساسه بأن ثمة غول يقترب حثيثاً منه .. ذلك السن - سن الستين والذى أطلق عليه « سن السكين » ..

وكان يقول بأن النظام الاجتماعى فى بلادنا يشحذ السكين ويسنه لكبار السن .. ولكن .. ها هو نفسه الذى يسن السكين لنفسه .. وهو الذى جز شعره بيده !!

الآن .. ماذا أفعل .. وهو بانتظارى ؟!

أذهب إليه أم لا أذهب ، لقد صرت أعرف .. بينما هو لا يعرف أنى اعرف .. ولا يتصور على الإطلاق أنني من الممكن أن أعرف !!

لا .. لن أذهب !!

ومع ذلك لم أستطع أن أنفذ قرارى .. لقد دهمنى شعور كاسح مقبض بأنه مقبل على كارثة ، وأنه سائر إليها بنصف وعى ، وعلى أن أكون بجواره وفى أسرع وقت !! إن للأيام الماضية علينا حقاً .. وقد لا يكون بفعلته الرهيبة هذه مجرماً ومتآمراً ، بل مريضاً لم تظهر عليه أعراض مرضه الخطير الغريب إلا الآن .. أو .. ربما هى بذرة الفناء الكامنة فى أعماق البطل نمت واستوت وأودت به وفقاً لقانونها الخاصة بها إلى التهلكة السريعة !! حينما اقتربت من العمارة التى يسكنها ، تعلقت عيناى بتلك النافذة الوحيدة فى شقته المطلة على البحر وعلى الكورنيش لعله يكون واقفاً بانتظارى .. إلا أن النافذة كانت مفتوحة ولا أحد فيها ! .. فلأعبر الكورنيش وليحملنى المصعد إليه .. غير أنى ما كدت أعبر الشارع وأقترب من باب العمارة حتى فوجئت بصوته ينادى على بلهفة . التفت ، وإذا به قادم من أحد الشوارع الجانبية معقود الجبين ونظرته ذاهبة فى كل اتجاه ، وقبل أن يبلغ مكانى ويسلم على .. فوجئت به يسألنى : ألم ترها وأنت قادم ؟!

وفكرت تلقائياً أنه يسألنى عن زوجته .. قلت لأستوثق .

– رأيت من ؟!

– القطة .. هيرا .. خرجت من الصبح .. ولم تعد حتى الآن . أول مرة تفعلها !! أيمكن هذا ؟! وانتبانى شعور غريب ومخيف بأنى اقترب من منطقة يختلط الضحك فيها بالبكاء .. والعقل بالجنون .

أهى لعبة درامية ساخرة يلعبها القدر معه .. أن تخرج الاثنتان : الزوجة والقطة من حياته فى وقت واحد ؟!

قلت وقد تملكنى الشعور بالإشفاق والرثاء لحاله : تأكد أنها ستعود .. هيرا لا تستطيع الحياة بدونك !

ندت عنه ضحكة صغيرة ساخرة : كلهم صنف واحد .. فى ستين داهية يا سيدى .. أنا نفسى كنت أريد هذا .. أن أكون وحدى .. تماماً .. لا أريد أحداً معى .. أى أحد .. وسأظل كما أنا .. قوياً .. وأعيش !!

* * * * * * *

فى ذلك اليوم ، ركبت آخر القطارات العائدة إلى القاهرة ، يملؤنى إحساس عميق بالفقد .. فقد عالم جميل كان .. وبشر كانوا .. ثم تحولوا .. ذابوا .. تبخروا .. رغم أنهم لا يزالون يدبون فى الوجود .. لكننى لن أسعى اليهم بعد ذلك لو عدت إلى الاسكندرية ، اللهم إلا إذا حدث شىء هائل بالمقابل يعيد التوازن !

وقد حدث .. وما أغرب ما حدث !!

كنت منكباً على مكتبى فى المجلة التى أعمل بها ، مستغرقاً فى كتابة موضوع عاجل .. وإذا بدقات خفيفة على الباب المفتوح تستأذن للدخول ، طلبت من الطارق أن يتفضل بالدخول دون أن أرفع رأسى من على الورق .. ومع هذا فقد عاود الطرق الخفيف مصراً على أن أرفع له رأسى قبل أن يدخل .. وإذا به هو .. بقامته العملاقة العريضة .. وشعره الفضى الثقيل الطويل وبشرته البحرية البرونزية ، ومع هذا فقد مرت اللحظات أو البرهات الأولى دون أن أتعرف عليه ، إذ كانت هيئته التقليدية فى ذهنى مرتبطة بثياب البحر .. بينما هذا الواقف بالباب يرتدى بدلة شتوية كاملة برباط عنق .. إلا أننى ما كدت أسمع بحة صوته الأجش وهو يقول : السلام عليكم . حتى هببت واقفاً مندفعاً إليه أعانقه : تصور أنى لم أعرفك على الفور . لقد تعودت عليك بثياب البحر حافياً على الرمل . هذه البدلة تبدو الآن عليك مثل قناع يخفى ملمحك الحقيقى !

وتوقعت أن يعلق كعادته برد فكاهى لاذع ، إلا أنه بدا وكأنه لم يسمعنى . ولمحت الأشعة فى عينيه مضطربة ومختلطة ، فارتسمت أمامى حكايته المأساوية مع زوجته ومع القطة هيرا .. استيقظ الفضول فى نفسى :

- ما أخبار هيرا .. هل عادت !

- عادت ، لكنى طردتها !

قلت مستغرباً : لماذا !

- لأنها جاءت وفى صحبتها قط .. تريد تسكينه معنا .. تصور !!

انفجرت ضاحكاً لهزلية القصة وغرابتها .. إلا أن شعاع عينيه اللافح أوقف الضحكة في حلقى ، وتنبهت إلى ما فى الحكاية من مأساوية كامنة ، وتلقائياً ربطت بين موقف القطة وموقف الزوجة ! .. ها هى القطة تتمرد فجأة عليه وتهجره ، ثم حين تعود إليه ، تعود وفى صحبتها عشيق لها .. من كان يتصور أن هذا يمكن أن يحدث من « هيرا » التى كانت هى الأنس والعزاء الباقى .. هيرا .. ذات السمت الإلهى الاغريقى والتى عاشت معه مثل راهبة قديسة .. (وزفر) :

- اصبحت قطة شوارعية .. تصاحب أى قط يقابلها . لم يعد لها امان .. حتى من الناحية الصحية لا ضمان .. انتهت صورتها المثالية من نفسى .. هى مرة واحدة عاودت المجيىء .. ولم تكررها بعد ذلك أبداً ..

ومرة أخرى ألفيتنى فى المنطقة التى تختلط فيها الضحكات بالدموع .. والعقل بالجنون !

قلت مشفقاً ومشجعاً : ومع هذا فالصحة ما شاء الله جيدة .. واللون البرونزى لا يزال .. (ونظرت إلى شعره العظيم) إنى أمسك الخشب !

قال بتنهيدة : أنت لا تعرف ما حدث لى بعد آخر مرة التقينا فيها بالاسكندرية . لقد مررت بمحنة رهيبة .. رهيبة بمعنى الكلمة !

استيقظ فضولى وقد لاحت لى سحابة مأساته مع زوجته وقطته ..

- خيراً .. طمئنى .

- استيقظت ذات صباح .. فوجدتنى مشلولاً .. شللاً نصفياً !

- يا ساتر .. هكذا فجأة !

- وأنا مستيقظ من النوم .. هممت بالنزول من على السرير ، فإذا بى عاجز تماماً عن الحركة .. جسمى متخشب يابس .. هيىء لى أنى أحلم أو فى كابوس .. لكنها كانت واقعاً وحقيقه .. حقيقة رهيبة .. إنى أصبحت نصف رجل .. نصف كيان .. نصف لسان ، فقد حاولت أن أنطق بأى كلام وإذا بلسانى يلتوى فى حلقى ولا يسعفنى .. وجدتنى فجأة مثل خرقة بالية ملقاة على السرير .. أنا الذى كانت هوايتى مصارعة الأمواج وكسب السباقات .. وإذ رأيت ضعفى وهوانى .. وأن الموت أفضل .. الانتحار فى صمت ، دون أن يشهد أحد هزيمتى فيشمت فى أو حتى يشفق على . لا . لن ألجأ إلى أحد لينقذنى .. ولا حتى إلى مستشفى أو طبيب .. فإن كان الله مقدراً لى النهوض مرة أخرى فسأنهض ! .. وكنت فى الفترة الأخيرة قد اكتشفت « اليوجا » كرياضة روحية وبدنية

أيضاً ، فقررت أن أعالج نفسي بها .. ودخلت دورة محمومة من الإصرار والتحدى : كنت أحرك فكى فتحاً وإطباقاً آلاف المرات كل يوم .. وكذلك ذراعى وساقى المشلولتين !

تذكر أحاديثنا ونحن فوق سطح الموج عن قدرات الإنسان الخفية الكامنة فيه .. كنت مصراً على أن أستل من داخلى كافة القوى والطاقات المستكنة التى تسعفنى وأنا أصارع الموج والمد والجزر .. أنا الآن فى صراع ضد جزر عام ينحدر بحياتى كلها إلى أسفل ويهددنى بالانقراض الكامل .. لابد أن أقاوم بأقصى ما أستطيع ! .. وكنت مع استمرار التدريبات أحس بأن ثمة تقدماً بسيطاً وتدريجياً يدب ويسرى فى عروقى فأندفع فيها بحماس أكثر وإرادة أقوى !! .. ثلاثة أسابيع فى هذا الصراع وخرجت من المحنة ووقفت على رجلى من جديد .. وكذلك اعتدل لسانى .. فمضيت أردد جملة واحدة لا غير .. الحمد لله .. الحمد لله .. أرددها بشتى النغمات وشتى الطبقات وكنت أبكى من السعادة فى وحدتى . وما أستمتعت فى حياتى بالوضوء والصلاة قدر ما استمتعت وأنا اتوضأ وأرجع وأسجد لله شكراً !!

وخرجت إلى الشارع والدنيا دون أن يعلم أحد بهذا الذى حدث لى .. أنت أول إنسان أخبره بهذه النكبة التى أصابتنى .. والحمد لله .. انقشعت !

كانت أنفاسى تلهث معه وهو يحكى .. وفكرت : كما أن البطل يحمل فى أعماقه بذرة سقوطه ، فهو يحمل أيضا - ويا للمعجزة - تلك الشرارة التى تضرم النار فى الرماد وتبعث فيه الشعلة المتوهجة من جديد !

وجذب نفساً طويلاً عميقاً يستجمع به نفسه ثم قال : ومع هذا ، فليس ذلك هو ما جئت إليك اليوم خصيصاً من أجله . لقد بت أعتقد يا صديقى أن القدر يقف لى بالمرصاد ويلاحقنى .. كلما نهضت من عثرة وجدت أخرى فى انتظارى . ولقد استطعت أن أنتصر على الشلل وحدى ، بإصرارى وإرادتى .. أما هذه المصيبة .. هذه الكارثة التى عشت طول عمرى متخوفاً من وقوعها ، فلست بقادر على مواجهتها وحدى .. ولهذا جئت إليك .. كصديق .. وككاتب وصحفى .. أريدك معى فيها .. أريد قلمك .. ليس قلمك أنت وحدك .. بل وكل الأقلام التى تؤمن بالخير وبالعدل وبالإنسانية .. إنها قضية جد خطيرة .

- أية قضية يا ترى !!

- يمكنك أن تجعل منها قضية العصر ؟ .. أن يأتى من يهدم روضة أطفال عمرها اكثر من خمسة وعشرين عاماً لكى يبنى مكانها برجاً استثمارياً من خمسة عشر دوراً .. هل يوجد فى العالم قانون أو دستور يوافق على هذا ؟!

حينذاك تذكرت حديثنا ذات يوم ونحن نطل من نافذته الوحيدة المطلة على البحر .. ولحظتها عبر لى عن خوفه الدائم من قيام مبنى عالٍ يحجب منظر البحر عنه ..

ها هو قد حدث !

جاءت شركة استثمارية كبرى ، وألقت بشتى إغراءاتها المالية فاشترت الأرض بالمبنى الصغير والحديقة الجميلة الغناء التى كان يلعب فيها الأطفال مع المراجيح والعصافير .. وشرعت فى هدمها ومحوها من الوجود..!

هبط قلبى لوحشية الصورة ، مستشرفاً - بخبرتى كمحام سابق - المستقبل الكئيب المحتوم :

- وما الذى تنوى عمله ؟!

- لقد بدأت العمل فعلا بمجيئى إليك فى الجريدة . وسأخرج من هنا على بقية الجرائد والمجالات ، ولولا أنى أراك منشغلاً لطلبت منك أن تصحبنى وأنا أقابل كل من أعتقد أنه سيتحمس للقضية .. يكفينى منك أن تكتب . وعلى أنا بقية الزملاء ..

لولا إدراكى أنه خارج لتوه من محنة المرض ، وقبلها محنته العاطفية التى فقد فيها زوجته وقطته ، لقلت له بمنتهى الصراحة : عبثاً يا صديقي كل تحركاتك هذه .. أنت تحرث فى البحر .. فليس هناك ، عبر كل التاريخ ، حق أقوى وأخطر وأقدس من حق الملكية ، وبنوع

خاص ، ملكية الأرض !! .. وإذا كان هناك في دنيا القانون مبدأ اسمه : لا ضرر ولا ضرار .. فالمستفيد فى حالتنا هذه هو المالك الجديد . الشركة الاستثمارية الكبرى التى ستقيم بأموالها العمران وتعليه طابقاً فوق طابق ، دون أن تفكر أو تعبأ بأن هذا ينشأ عنه حجب عدة بيوت أو عمارات من رؤية البحر .. كن واقعياً وتقبل قدرك !!

لكنى بالطبع كتمت كل هذا فى نفسى .. إشفاقاً عليه .

قال مواصلاً وقد عاود وجهه التجهم والشرود : إذا لم أكسب هذه القضية ، فستكون النهاية محزنة .. أنت لا ترضى .. لا أحد يرضى ..

قلت وصدرى يضج بالمتناقضات العديدة : طبعاً لا أحد يرضى .. وأنا شخصياً ستكون خسارتى كبيرة لو قام ذلك البرج وحجب المنظر الجميل الذى كنت أستمتع به معك : الميناء القديم .. والقلعة .. ومئذنة سيدى المرسى أبو العباس .. وخط الأضواء المستديرة والمتلألئة فى الليل ..

قال وشفتاه ترتعشان رغماً عنه تأثراً : أنا الآن مطمئن أنك ستقف معى .. ستكتب فى الموضوع .. هذا سيسند موقفى فى الدعوى التى سأرفعها أمام المحكمة .. المهم أن يكون هذا بسرعة .. (ونهض واقفاً) أنا الآن ذاهب لمقابلة الأستاذ (.............) .

- أرجو لك التوفيق .

وسلمنا بحرارة . وخرج .

* * * * * * *

تلك الأيام ، كانت مصر تمر بمرحلة تحول تاريخية .. كان البعض يقول بأنها تستدير مرتدة إلى الخلف بقوة .. بينما آخرون يقولون بأنها تنطلق قفزاً إلى الأمام .. أما الحاكم الأعلى نفسه فقد كان يقول متباهياً : أنا أقنعت الأغنياء أن يخرجوا فلوسهم من تحت البلاطة !! .. كما كان هناك شعار سار : من لن يغتنى فى هذه الأيام ، فستفوته الفرصة إلى الأبد !

ولهذا ، فقد صعد البرج بسرعة فاقت كل تصورات صديقى وتحركاته . بل إن هذه السرعة أحدثت له صدمة جعلته يشعر بالهزيمة المحتومة . ولم أدرك هذا إلا من رسالة بعث بها إلىّ يعبر فيها عن حالة من اليأس والاستسلام العميقين . ما زلت أذكر جيداً بعض سطورها :

" .. إننى اعيش فى الدور السابع ، ومع هذا أحس بأننى موشك على الغرق .. فكلما ارتفع دور جديد فى البرج ، أحسست بأن الطوفان يعلو حثيثاً ويقترب منى .. وقريباً جداً سيدهمنى ويبتلعنى ! " .

وقد انقبض قلبى لهذه الصورة المفجعة والموغلة فى التشاؤم : وفكرت بضرورة السفر إليه فى أقرب فرصة تواتينى .. إلا أننى لم

أكن أدرك السرعة الرهيبة التي كان يرتفع بها البرج .. ومن ثم الطوفان ..

وحدثت المأساة !

* * * * * * *

كانت الفرصة قد واتتنى للسفر إلى الاسكندرية ، وطلبته بالتليفون أول ما وصلت لأطمئن أنه بالبيت . وإذا بمفاجأة : كانت زوجته هى التى ترد على .. انبثق فى قلبى نبع من الفرح ، وصحت متهللاً ، ظاناً أنهما تصالحا ، والحب أبو المغفرة والنسيان .

- ألف حمد الله على السلامة . يا صاحبة القلب الكبير دائماً .. نورت بيتك ، وأعدت الروح إلى بيت صديقى العزيز .. و ..

وإذا بها تنشج باكية .. نشيجاً متقطعاً ، متوالياً ، وعلى نحو قاهر .

شممت فى الحال رائحة كارثة : صحت عليها : ما الحكاية .. أين (..........) ؟!

ومن قلب تمزقات النشيج : البقية .. فى حياتك !

عدت أصرخ وقد دارت بى الدنيا : مستحيل - مستحيل .. كيف ؟ ما الذى حصل ؟!

وتوقفت المكالمة . فقد انخرطت أنا الآخر فى النشيج !

كان من الطبيعى أن أذهب إليها لتقديم العزاء ، أو قل لنتبادله ! .

يا إلهى .. لكأنها كبرت عشرين عاماً فى عام .. ومع هذا فثمة هالةِ مضيئة كانت تشع من حركتها وقد ارتدت ثياب الحداد السوداء .. أضفت عليها شعوراً بالنبالة والجلال .. جلال الاصطبار .. والرضا بالمقسوم !! ..

وما كدنا نسلم والعين تأتى فى العين حتى قفز إلى الذهن لقاؤنا العاصف الأخير بما تفجر فيه من صراع دفين .. لكن اللحظة لم تكن تحتمل أية تذكرات أو تعليقات .

تنهدت : أرأيت ما الذى فعله بنفسه ؟!

قلت بلهفة : ماذا فعل ؟! قولى لى !

– نزل البحر بملابسه الكاملة وظل يخوض .. ويخوض .. حتى غطاه الموج .. واختفى !

انتفضت واقفاً كالملسوع : معنى هذا أنه انتحر ؟!

هزت رأسها نفياً : لا .. هو نفسه كان حريصاً على أن ينفى هذا عن نفسه ! .. كتب هذا فى ورقة ! ..

ونهضت للحظة ثم عادت بورقة صغيرة أعطتنى إياها لأقرأها :

« .. أنا ذاهب إلى مملكتى التى ظنوا أنها راحت منى ، بعد أن سدوا النافذة الوحيدة المطلة عليها .. إياكم أن يقول أحد أنى انتحرت .. الأبطال يحتاجون لأن يستريحوا .. سأستريح حتى الأعماق .. حسن أنى لم أترك أحداً يحزن لفراقى !

ازداد الدوار .. ذلك شىء يحتاج إلى جهد هائل وقوة نفسية متعاظمة لكى أحتمله واستوعبه !!

وبينما أنا فى هذه الحالة ، إذا بى أمام مفاجأة أعادت لى انتباهى .. صحت مستغرباً .

- هيرا .. عادت إلى البيت ؟! .

وقبل أن استمع أية إجابة أو تعقيب ، رأيت قطاً لونه يميل إلى الخضرة الغامقة يدخل فى أثرها .. على مهل !

تراه القط الذى طردت هيرا بسببه ؟! .. يا ربنا .. ها هم الثلاثة الذين غادروا الشقة يعودون إليها على نحو درامى غريب !! وهو .. ؟!

أحسست بدقات قلبى تسرع . جلست على أقرب مقعد كى أضمن تماسكى .

كانت تجلس قبالتى . بثياب الحداد ، والقطة والقط .. أسفل قدميها .. بينما عاودنى مشهده الأخير .. مشهده التاريخى .. وهو يدخل البحر بملابسه ويمضى .. ويمضى .. حتى يغطيه الموج .. ويختفى .. إلى أبد الآبدين !!

وداعـــا
يا من كنت غرامي

أجل .. وداعاً وإلى الأبد ..

لا حنين بعد ذلك ولا ندم ..

أستنشق الآن نسائم الحرية ..

سعيداً بخروجى من الأسر والعبودية ..

كنت سجيناً وانطلقت ..

كنت أسيرا وانعتقت ..

أجذب الهواء إلى رئتى عميقاً عميقاً .. صافياً طاهراً نقياً .. كما
لله الله ، وليس كما لوثه البشر ..

انتهى عهد المحرقة ..

نعم محرقة .. اقولها وبدون أدنى مبالغة ..

كان الحارق فيها والمحروق أنا ..

حين انظر الآن إليها من بعيد .. استرجع تفاصيل المنظر ، وأنا
شعل النار ثم اقذف بكتل الدخان الأسود فى جو فى .. كم مرة
النهار ، وكم مرة بالليل .. لا حصر ولا عدد ..

كم طال معى عهد المحرقة ؟!

للأسف معظم عمرى ..

بلغت درجة الإحساس بالعبودية والأسر ذروتها ، حين أصبح إشعال المحرقة وتعاطي دخانها شرطاً لكى أمسك بالقلم وأكتب ! ..

مهنة حياتي الرئيسية .

تحولت المحرقة إلى طقس قريب من طقوس العبادة ، التمس من خلاله الوحى الإلهي .. سعيداً بأنى كلما احترقت من داخلي أكثر كلما جاءت الكلمات أكثر توهجاً وتعبيراً وحرارة !!

إلى أن كان مساء ..

بعد يوم حافل بالاحتراق وبالعمل .. ما كدت أصعد إلى سريرى ، وأميل برأسي إلى الوسادة حتى بدا لى وكأن السرير نفسه يهوى بى فى فراغ شاسع ، والأشياء تترنح وتتمايل .. وانفاسى .. أين الهواء .. استجدى نسمة صغيرة فتخذلنى رئتاى .. ودقات القلب أصبحت وكأنها دقات طبول لا ضابط لها ولا رابط ! .. اتكون ساعة الأجل قد حانت ؟! أصيح مستنجداً بزوجتى وأولادى الجالسين على بعد خطوات في الصالة ، لكن بحة صوتى لا يسمعها غيرى .. فأناضل حتى أصل إليهم .. مستنداً على الحائط .. خطوة خطوة .. أحست بى رفيقة العمر .. هرعت إلى بكل ذراعيها واحتضنتنى من السقوط .. وإذ رأيت الفزع يطل من عيون الأولاد ، حابسين الدمع فى عيونهم ، لم يهونوا على .. قلت مجاهداً بشبح ابتسامة : ماتخافوش على .. إن شاء الله حابقى كويس .

ورحت أقاوم الإحساس بالاختناق والغيبوبة .

* * * * *

وبينما كانت إحدى عربات مؤسسة « روزاليوسف » بأمر من طبيب الدار .. الدكتور جمعة الذى ما أن اتصلت به زوجتى حتى عادنى سريعاً فى البيت وأمر بتحويلى إلى مستشفى القاهرة التخصصى .. بينما كانت العربة تنطلق بى إلى المستشفى .. وكان يجلس بجوارى « سيد » التومرجى .. يحاول طمأنتى ببضع كلمات .. فلا أستوعب ما يقوله .. بل تختلط ملامحه فى عينى .. ليس هو وحده .. كل الأشياء تختلط وتضيع وتتناثر فى فراغ العدم : الأشياء التى صنعتها ، والمعارك التى خضتها ، والانتصارات التى حققتها ، والأحلام التى لم تتحقق بعد وكنت أحلم مشوقاً بتحقيقها .. كل جماليات الحياة ستضيع منى : الحب .. والأولاد ... وأصغر الأحفاد .. ودورة الفصول .. ودفء الشتاء وانطلاقات الصيف وأمواج البحر وسهرات الليل على شاطىء النهر .. وقبل كل هذا وبعده : الفن .. ذلك الساحر الذى منح حياتى تميزها وبهجتها ودراميتها .. وأشواقها الأبدية ! ودخلت بى العربة المستشفى .

* * * * *

خمسة أيام قضيتها فى قسم العناية المركزة .. مريضاً مثالياً .. ممتثلاً لأبسط وأشق التوجيهات .. ملهوفاً لأن أعرف ما تقوله شتى

التقارير .. ربما تكون هناك علل أخرى خفية وكامنة تتحين الفرصة للظهور والهجوم المفاجىء !

- الحمد لله .. (قالها الطبيب) كل شىء على ما يرام .. فقط بعض القصور فى أداء الشريان التاجي .. لا أحب استعمال بعض التعبيرات الشائعة فى مثل حالتك : جلطة .. ذبحة صدرية .. وهى علمياً صحيحة بلغة القواميس الطبية . حالتك من السهل تداركها لو انتبهت لنفسك .. (ونظر جاداً في عينى) قلت لى أنك مدخن عظيم .. من الآن لابد أن تصبح السيجارة ذكرى غير جميلة فى حياتك . وأسمح لى أن أقولها لك بصراحة : إن عدت إليها ، فلا تعد إلى .. ابحث لك عن طبيب آخر !

هذا الحسم والتجسيم فى وصف الخطر أراحنى .. كنت فى أشد الحاجة إلى مثل هذا التحذير أو النذير .. أنا نفسى ، وقبل أن تقع الواقعة ، كنت قد بدأت أدرك الهوة الصحية الرهيبة التى أنا منساق للسقوط فيها !! كنت وأنا مستغرق فى الكتابة انتبه فجأة على منظر مخيف : مطفأة السجائر وقد امتلأت بكومة محتشدة عالية من أعقاب السجائر .. عشرات السجائر المحترقة فى صدرى فى جلسة واحدة .. فأفزع لمنظرها ، وبسرعة أقذف بها إلى صندوق القمامة .. ثم أعيدها فارغة أمامى .. ولكن ، لكى أملأها بالطبع أعقاباً ورماداً من جديد !!

هذه المحرقة اليومية المرتبطة تحديداً بالكتابة على مدى عشرات الأعوام .. لابد أن تنتهى الآن .. لابد حتى ولو أدى الأمر إلى الكف عن الكتابة .. فالحياة أغلى وأروع ، ومع الحياة قد نجد حلاً للمشكلة .. المهم الآن الشفاء .. متعة أن يتنفس المرء الهواء بعمق ، أن يروح ويغدو دون أن تزعجه اضطرابات فى دقات القلب .. ألا نحس حتى بهذه الدقات .. الوجود السهل الناعم المنسجم مع كافة آليات الحياة .. فهل أنا قادر على ذلك ؟!

فى صمت الليل ووحدته ، والسكون مخيم على العنبر ، ليس غير أنفاس المرضى تتردد قريبة منى ، أعود بالذاكرة إلى الوراء .. كيف كانت بدايتى مع التدخين .. أول سيجارة فى حياتى أشعلتها .. ما زلت اذكرها وعلى نحو ساطع ، رغم مرور عشرات السنين .. وقبلها .. اللحظات التى مهدت لها .. وجعلتنى أهيم وراءها .. دون أن أعرف كنهها ومحتواها ، ذلك المنظر الذى رأيت أخى الأكبر عليه خلسة ، واقفاً أمام مرآة الدولاب الكبير يتأمل نفسه بإعجاب وهو يجذب نفساً عميقاً من سيجارة مشتعلة ، ثم وهو ينفث دخانها حلقات حلقات يسرح وراءها بفكره .. لسوف أفعلها أنا أيضاً .. هو يكبرنى بخمس سنوات .. لكنى لن انتظر حتى أغدو فى مثل سنه .

أرانى صبياً صغيراً .. فى حوالى العاشرة .. سارحاً شارداً على الجسور وفى قلب الحقول .. تستوقف نظرى فجأة شواشى الذرة

المطلّة من الكيزان .. ناضجة بنية اللون غامقة فى لون الدخان .. آه .. وارتسمت الفكرة .. ياله من اكتشاف .. آخذ بعض هذه الشواشى وأفركها جيداً فتتحول إلى دخان ألفه فى ورقة على شكل سيجارة واشعلها بعود ثقاب ، وعلى الفور دخلت مرحلة التنفيذ ، قطعت كمية من الشواشى .. مع نصف ورقة انتزعتها من إحدى الكرّاسات .. مع علبة ثقاب اختلستها من البيت ، صعدت على تلة صغيرة وجلست بجلبابى على قمتها .. فركت الشواشى بقدر ما أستطيع ثم وضعتها فى الورقة ولففتها .. ثم لصقتها بريقى .. جاءت منتفخة ضخمة .. لم أعبأ .. أشعلت عود الثقاب .. قربت النار من طرف السيجارة الخارجة من بين شفتى .. وبمنتهى السرعة والقوة جذبت نفساً عميقاً إلى صدرى .. وإذا بى قبل أن أكمل النفس ، أجدنى ساقطاً بظهرى على الأرض شبه فاقد الوعى !!

أبداً لا أنسى هذه الواقعة ، والتى - ويااللغرابة - لم تردعنى ، بل أثارت فى نفسى الشعور بالتحدى .. والرغبة فى الانتقام من الفشل .. وفكرت فى نفسى : المرة القادمة .. ستكون سيجارة حقيقية !!

وبدأت مسيرتى الكبرى مع السيجارة .. أصبحت هى مغامرة حياتى الكبرى .. أحقق بها رجولتى .. أطير بها مع أحلامى وشطحات خيالى ..أقارن بينى وبين نجوم السينما الكبار وهم يدخنون .. كل بطريقته الساحرة : أنور وجدى ، وكلارك جيبل ، وألان لاد .. متعجلاً الكبر والالتحاق بالجامعة كى أحظى بشرعية التدخين ! .. أصبحت

رفيقة حياتى التى أهمس لها بأمنياتى وبإحباطاتى أيام الوحدة والتشرد والاغتراب .. وحين تزوجت أغريت بها زوجتى ليتم بيننا التوحد والتلاقى إلى أقصى الآماد !.. وكنت أرى فيها - السيجارة - رفيق السفر فى أشق الرحلات .. وقد بلغت نشوة التدخين ذات لحظة فى ليلة مقمرة وأنا على سطح إحدى البواخر السارية فى أعالى نهر النيل .. بلغت النشوة أقصاها وثمة إحساس دافق بحب الحياة وبالامتزاج بالكون يتملكنى ، ووجدتنى أكتب فى نوتتى الصغيرة الموضوعة فى جيبى : وهل بالسيجارة وحدها يحرق الإنسان نفسه ؟! يحرق الإنسان نفسه أيضاً بالحب .. بالوفاء .. بالشجاعة .. بالصدق .. فلنحرق أنفسنا تطهراً وفناء فى هذا الكون الرائع !

هكذا كنت لا أكف عن إضفاء هالات من الضياء ومن السحر حول وجود السيجارة فى حياتى .. وكنت أقول جاداً لمن ينصحنى بالإقلاع عن التدخين : وما الذى سيبقى للإنسان فى هذه الدنيا إذا خرجت السيجارة من حياته ؟! .. ويا عزيزى .. من لم يمت بالسيجارة مات بغيرها والعمر واحد !!

الآن .. وأنا قابع فى العتمة .. عتمة عنبر العناية المركزة ، أقول لنفسى ! بل يبقى الكثير الكثير بعد أن تخرج السيجارة من حياتى .. بل إننى لا أبتغى من الحياة غير الحياة نفسها .. فى أبسط صورها ..

مثلما تقول تلك الشاعرة الألمانية العاشقة للحياة وللطبيعة ! ليس أجمل تحت الشمس ، من أن تكون تحت الشمس .

إلى الجحيم إذن بكل متعك الزائلة أيتها السيجارة .. وكفانى محرقة !!

كان هذا هو قرارى البائر الحاسم وأنا خارج من المستشفى على قدمي نشيطاً سعيداً ومبتهجاً بعودتي للحياة .. ولم يجل لحظتها بخاطرى أن هناك معركة هائلة ومهولة فى انتظارى ، مع تلك التى كانت طوال العمر غرامي ونصف حياتى الثاني ، من قبل حتى أن تدخل الزوجة والحبيبة وأم الأولاد حياتى !

* * * * *

وتحديداً كانت المشكلة التى سرعان ما واجهتنى ، هى الكتابة .. أن أكتب بدون سيجارة .. وهى عادة ارتبطت بها ، وانضبطت على حركتها وايقاعاتها ، وإيحاءاتها ، كل أجهزتى العصبية والنفسية والفسيولوجية على مدى عشرات السنين ، من أيام محاولاتى الباكرة الأولى في الكتابة حتى الآن عبر آلاف الصفحات من قصص وروايات ومسرحيات وسيناريوهات ومقالات وتحقيقات .. كانت السيجارة .. اشعالها وجذب أنفاسها - هى الفعل الشرطى لانطلاق الخيال واستدرار الوحى وانسيال العالم محتشداً بنشوة الخلق والتكوين !! عادة ترسخت وتحولت مع الأيام والأعوام إلى ما يشبه القانون

الطبيعى .. وعلى من الآن إلغاء هذا القانون والتحرر تماماً من سطوته وسيطرته بكل أبعاده !

غير أن المعركة جاءت على مراحل .. ففى البدء ، فى الأيام الأولى عقب خروجى من المستشفى ، وعودتى إلى إيقاع الحياة العادية ، بدا لى أنى كنت أبالغ فى صعوبة وخطورة المشكلة .. فها هى بقايا علب السجائر متناثرة فى مكتبى وفى مختلف أرجاء الشقة ، ومع هذا فلا أحس نحوها إلا بالرفض والنفور ، وها هما ، زوجتى وابنتى تدخنان ، وكذلك الأصدقاء والزملاء ومعظمهم مدخنون كبار .. وأنا معهم ، تمتلىء خياشيمى برائحة النيكوتين دون أن اهتز أو يعترينى الحنين .. ذلك أن أشباح الأزمة وذكريات آلامها واختناقاتها كانت لا تزال قريبة العهد ، أصداؤها ماثلة فى الخيال .. فضلاً عن أنى كنت قد أعطيت نفسى أجازة طويلة من الكتابة وعالمها القائم أساساً على الانفعال والمجاهدة ، دون إحساس بالتقصير !!

كنت كمن يعيد تركيب عناصر بنيانه الجسدى والنفسى ، ويضخ فيه شحنات الحياة على مهل وبالتدريج .. !!

ساعة بعد ساعة ، ويوماً بعد يوم ، والأيام غدت أسابيع ، والأسابيع شهوراً .. وانجلى الصدر ، وعادت الأنفاس عميقة ومريحة وميسورة ، وعرفت بحق معنى التاج الناهض على رؤوس الأصحاء لا يراه غير المرضى أو الخارجين لتوهم من غمة المرض .. ولكم كان

جميلاً بل مدهشاً أن استيقظ ذات صباح باكر ، وإذا بى أحس بطاقة فياضة من الحيوية والنشاط منشورة فى كل جسدى .. ورغبة عارمة تملؤنى فى الخروج والانطلاق .. فمضيت طليقاً مسرعاً على كورنيش النيل .. ويالروعة أن يحس المرء بوقع قدميه وهما تدبان بقوة فى الأرض على نحو يذكر بأيام الصبا والشباب الأولى .. ولحسن الحظ كان الكورنيش مرصوفاً حديثاً وعلى نحو جمالى .. فتفتح القلب أكثر وأكثر ومضيت مدفعاً .. أسير وأسير .. أود لو أحلق وأطير .. وإذا بشهوة الكتابة والخلق تعاودنى ، بل قل تهاجمنى !! آه .. لكم أوحشتنى الكتابة . ثلاثة أشهر باكملها لم أخط حرفاً . أظن الأوان آن يا عبدالله .. أن تدخل التجربة المرتقبة .. أجل مرتقبة .. ذلك أننى هذه المرة سأكتب بلا سيجارة .. أمسك القلم بيدى اليمنى ، دون أن تكون السيجارة فى يدى الأخرى .. وإذا بى أحس فجأة بما يشبه اختلال التوازن ، وأن إحدى الكفتين (اليد الممسكة بالقلم) سقطت إلى أسفل والأخرى (الخالية من السيجارة) علت وارتفعت .. وحدث ثمة اضطراب فى فكرى ، بل فى دقات القلب أيضاً .. وحينذاك قذفت بالموضوع كله خلفى .. لا .. لم يأن بعد أوان الدخول فى المعركة . أجل .. يجب ألا أتعجل .. فالخطر لا يزال ماثلاً .. ولو أدى الأمر إلى تراجع الكتابة والفن فترة أطول لقاء الاحتفاظ بالحياة نفسها !

فجأة ، وبعد بعض الوقت ، وقد تلاشت من رأسى مع الأيام والأحداث كل ذكريات الأزمة ، والصحة الطيبة أصبحت شيئاً مألوفاً

ومعتاداً ، إذا بإحساسى بالفراغ وبالجفاف يهاجمنى .. وأننى نعم صحيح وسليم وأتحرك بحيوية ونشاط .. ولكن ما جدوى هذه الحركة .. وأية متعة فيها .. بل ما قيمة الحياة نفسها دون أن أزاول مهنة وهواية حياتى العظمى .. الكتابة .. فن الكتابة ؟ إنه الموت البطىء !!

الآن حياتى وتحقق وجودى فى الكتابة .. لا تأجيل ولا تراجع .

بدأت المعركة الغريبة والخطيرة .. معركتى مع السيجارة !

وكما يقال فى الحروب : إعرف عدوك . مضيت مهموماً وجاداً أفكر وأبحث على نحو علمى : من أين تنبعث قوة السيجارة وسطوتها وتأثيرها على عملية الكتابة .. بالذات فى عالم الإبداع الأدبى والخلق الفنى ؟!

تراها تكمن حقاً فى تأثير تلك المادة المسماة بالنيكوتين ، والتى أحياناً ما نضيف إليها مع التبغ مواد أخرى ، لمزيد من شحنة التنبيه وإطلاق صاروخ الخيال من أرض الواقع المألوف إلى دوائر الأفلاك العلا ؟!!!

ونظرت من حولى .. إلى أصدقائى وزملائى الكتاب والفنانين .. فإذا بمعظمهم أسرى للسيجارة مثلى .. بل منهم من هو أسير لما هو أقوى وأعتى من السيجارة .

وأعبر سريعاً تلك المنطقة الشائكة .. فها أنا أرى بعض الوجوه الحبيبة ترسل لى نظرة عتاب محذرة : إلى هنا وتوقف .. إياك أن تضرب أمثلة .. تكلم عن نفسك وعن تجربتك فحسب .. أيها المغرم دائماً بفضح نفسك .

- سمعاً وطاعة أيها الأصدقاء .. إنما أنا لا أفضح نفسى .. أنا أعريها .. لأطهرها بشمس الحقيقة وهوائها الطلق .

ودعواتى لكم بالصحة والعافية ومزيد من العطاء الفنى ..!!

تلك كانت إحدى الفترات التى وجدتنى مهموماً فيها بتأمل كنه وطبيعة عملية الخلق الفنى .. خاصة لحظة الانبثاق والسطوع .. لحظة الانفجار الضوئى .. أو لحظة الإلهام والتجلى .. سمها ما شئت كيف ومن أين تأتى .. وما منابعها ومكوناتها الباطنية والظاهرية !.. وكنت وما زلت أرى العملية الإبداعية فى ذروة معاناتها واكتمالها ، شديدة الشبه جداً بعملية الولادة .. وإذا كانت المرأة تلد من رحمها ، فالفنان يلد من رأسه ، أو من شق فى صدره تخرج منه الأفكار وتنطلق مثل طيور مرفرفة ناضجة .. فهل يمكن إرجاع هذه العملية بكل ما فيها من إعجاز الخلق وقداسته إلى مجرد تدخين سيجارة ، مهما كانت خلطة التبغ التى فيها ؟! فما أهونها وما أتفهها من عملية .. أن يتحقق الخلق والإبداع بفعل شحنات صناعية آتية من خارجنا .. بينما الحقيقة أن طاقة الخلق والتكوين كامنة فينا .. ليس علينا إلا اكتشاف مكامنها

ومعرفة مفاتيح تفجيرها .. وإذا كانت السيجارة قد فرضت نفسها وسحرها بقوة العادة ، أفليس فى الإمكان اكتشاف أو ابتداع عادة جديدة بديلة .. قادرة على استثارة مركز الخيال والتخيل الموجود في مخ الإنسان .. فيرسل الأوامر والإشارات إلى الغدد المعنية ، بذلك الأمر فتعزز المواد المنبهة الموجودة ، ويحدث على الفور التحليق والانطلاق !!

بمعنى آخر :

استخراج وقود الفن ، من منجم الذات الإنسانية المليء بالطاقات والجواهر .

هل يمكن هذا ؟! وكيف ؟!

قد يعلق القارئ غير المدخن فى ضجر : ما كل هذا ؟! لكانك تكتب عن ملحمة نضال شعب ضد استعمار مزمن يحتل وطنه !!

أجل .. هو ذاك .. وربما أصعب وأكثر تعقيداً .. ذلك أن الاستعمار كيان مادى واضح ومجسد فى قوات مدججة بالسلاح .. وما عليك لإجلائها إلا بمواجهتها بمثل سلاحها ، أما السيجارة فهى نوع آخر من الاستعمار أشد وأعتى .. عادة تملكتنا واحتلتنا واستوطنت أرواحنا فلم نعد ندرى من أين نأتيها ولا كيف نقتلعها من نفوسنا وننقي منها دماغنا !!

كما أن المعركة ضد الاستعمار الأجنبى ، هى دائماً معركة جماعية قومية يتوحد الكل فيها .. أما المعركة ضد احتلال السيجارة فهى معركة شخصية بحتة !! وسرعان ما اكتشفت فى المحيط الذى أنا فيه أن التدخين هو القاعدة .. والاستثناء هو عدمه !

كنت فى تلك الأيام شديد القرب من ثالوث الفن المصرى العظيم توفيق الحكيم ، ويحيى حقى ، ونجيب محفوظ .

وقد بدا لى أن « توفيق الحكيم » يمكن أن يكون النموذج الذى أحتذيه .. إذ لم يكن يدخن على الإطلاق .. ومع هذا فهو يقف على جبل شامخ من الإبداعات الأدبية الفنية : روايات ومسرحيات ومقالات .. ومسروايات .. إذن فليس الخلق الفنى قرينا بالضرورة للتدخين !! لكننى تبينت سريعاً أن حالتى غير حالته .. فهو لم يدخن أبداً طيلة حياته .. لم يخض المعركة التى أخوضها الآن .. كما أنه كشف لى — فى إحدى جلساتنا — أنه كان يشترى « الويسكى » بالصندوق !! إلا أنه حرص على أن يقول لى ما هو قريب جداً من كلمات جبران خليل جبران : انتم تشربون لكى تسكروا .. أما أنا فاشرب لكى أفيق .

« كأس أو بالأكثر كأسان يخرجاننى من وخم الحياة العادية وإيقاعها الرتيب .. » ثم حرص أيضاً أن يضيف : ذلك كان فى الماضى .. أيام الشباب .. أما الآن .. فبأمر الطبيب لا أتذوق منه ولا حتى القطرات .. حرصاً على الكبد بالذات !!

ورغم هذا .. كان لا يزال مستمراً فى كتاباته وتحليقاته .

أما عمنا الضاحك الودود « نجيب محفوظ » فبحكم تركيبته الفريدة فى انضباطها وسلوكياتها المحكمة الدقيقة .. فكان خارج دائرة التقليد .. حتى فى موقفه من التدخين .. بل ربما كان يشكل خطورة على فى تلك المرحلة .. ذلك أن طريقته فى التدخين تنبىء كم هو شديد الالتصاق بالسيجارة .. فهو يتعامل معها بالساعة .. بل بالدقيقة والثانية .. بالضبط كأنه يتعامل مع دواء أو بلسم !

أما صديقنا واستاذنا العظيم « يحيى حقى » .. وهو من ملوك التدخين العظام ، فقد التقيته ذات يوم - خلال معركتى مع التدخين - وقلت له بحماس : مش أنا بطلت السجاير يا أستاذ يحيى ؟!

فأجابنى على الفور بابتسامة مطلة من عينيه : عظيم . أنا كمان بطلتها .. ييجى عشرين مرة .

ورغم أنى ضحكت لإجابته الساخرة اللطيفة .. إلا أن هزة عميقة حدثت لكيانى .. هزة ظلت تلازمنى فى الخفاء ، حتى وجدتنى ذات صباح أستيقظ وثمة رغبة طاغية تتملكنى .. أن أمسك بالقلم وأكتب أعود إلى الجزء الثانى من سيرتى الذاتية « عينان على الطريق » التى كانت الأزمة أوقفتنى عنها .. لقد وجدتنى مدفوعاً بجوع أو بشهوة أو بحنين طاغ ، أو قل بكل هذا معاً لأن أعود وأتلبس حالة الكتابة وأخوض غمارها ومغامرتها .. وإذا بى أيضاً - كالمساق - ارتدى

ملابسى وأترك البيت الذى أعيش فيه مع زوجتى وأولادى قاصداً شقة صغيرة لنا فى المعادى .. لأكون وحدى .. خارج أي رقابة .. وجلست إلى مكتبى وانكببت على الورق .. القلم فى يدى اليمنى ، والسيجارة فى يدى اليسرى .. كل همى أن أستعيد حياتى ونبضى وتنفسى ككاتب .. أؤكد لنفسى أنى لم انته ككاتب .

* * * * *

وفى البدء ، بررت الأمر لنفسى صحياً ، أنى لن أزيد على سيجارتين .. واحدة أدخل بها على الكتابة .. والثانية كنوع من المكافأة أو « الشبرأة » .

غير أنى حين انتهيت من الكتابة فى ذلك اليوم ، وجدت أنى دخنت خمس أو ست سجائر .. ثم يوماً بعد يوم ، وبفضل أنى أدخن فى الخفاء ، فقد راح العدد يتزايد !! لم أعبأ .. بل إنى كنت من أعماقى سعيداً لأنى أنجز – كماً ونوعاً – من الكتابة ما يسعدنى !! وإذ لم أشعر من قريب أو بعيد بأى اضطراب أو تعب ، فكرت بأن تلك الأزمة كانت سحابة معتمة وانقشعت .. وعاودنى الحنين إلى متعة التدخين بحرية فى الهواء الطلق ، وفى العلن !! .. أجل ما أسوأ أن نمارس هواياتنا ومتعنا الجميلة فى الخفاء ! .. وعدت بالتدريج أدخن كالمعتاد علانية وأمام الجميع !! واعتماداً على الشكل الخارجى لحالتى الصحية التى بدت مطمئنة وغير باعثة على القلق ، فقد تقبلت الأسـرة

عودتى للتدخين .. مذكراً إياهم بمزحة يحيى حقى .. أنه كف عن التدخين أكثر من عشرين مرة !!

غير أن المزحة سرعان ما انقلبت إلى ما يشبه المأساة .. كنت عائداً إلى بيتى ذات يوم بعد زيارتين حافلتين قمت بهما لصديقين مريضين رقد كل منهما في مستشفى .. الأول كان يعانى أوجاعاً فوق الطاقة بسبب التهاب بللورى فى الرئتين .. والثانى كان قد مضى عليه ثلاثة أيام وهو فى النزع الأخير ، وما كدت أدخل من باب البيت ، حتى أحسست بدوار مفاجىء جعلنى أستند سريعاً على الحائط ثم أهبط جالساً على الأرض .. وإذا بالأزمة إياها تهاجمنى : ضيق فى التنفس .. واضطراب عنيف فى دقات القلب .. وحين رأتنى زوجتى على هذه الحال صرخت على : مالك يا حبيبى .. كفا الله الشر .. يا ساتر يارب !! وأخذت بيدى . حتى أوصلتنى وأرقدتنى على السرير !

ولا أزيد فى وصف الآلام التى كابدتها كى أظل قادراً على التنفس فحسب ، وكذلك على الاحتفاظ بقدر من الوعى ، الغريب أنى بهذا القدر الضئيل من الوعى منعت زوجتي من الاتصال بالطبيب ، مكتفياً بأن تناولنى أدوية القلب !! كنت ممتلئاً بالشعور بالذنب وبالخجل من نفسى .. ذلك أنى بتأثير الانفعالات التى عشتها خلال تلك الزيارتين دخنت كماً هائلاً من السجائر دون أن أدرى ، بالإضافة إلى الكمية التى دخنتها صباح نفس اليوم فى فترة الكتابة المعتادة !! .. إفراطاً لا

واعياً لم يوقفنى عنه إلا وصولى لحالة عجز عن التدخين .. ورأيت ببساطة ووضوح كاملين .. إننى هكذا سائر حثيثاً إلى قبرى ! .. وأن لا أحد غيرى مسئول .. وعاودتنى كلمات الطبيب محذراً إياى من سوء العاقبة : وإذا عدت للتدخين ، فلا تعد إلى .. ابحث لك عن طبيب آخر .

الآن .. مع وضوح الحقيقة ، لا طبيب آخر إلا نفسى .. أجل .. أنا المذنب والضحية فى آن واحد .. وما أكثر ما استشعرت إمكان حدوث هذا الذى حدث ، حتى أنى سجلت مشاعرى ذات لحظة فكتبت فى نوتة يومياتى الصغيرة ، تعليقاً على عودتى وإفراطى فى التدخين أثناء الكتابة : أننى أسير على طريقين فى وقت واحد .. طريق الفن .. وطريق الموت !!

أجل .. أنا وحدى المتسبب فى محنتى ، ولا أحد غيرى بيده دوائى وشفائى .. هذا إذا استطعت تجاوز المحنة هذه المرة .. لا .. بل لابد من تجاوزها .. ولسوف اتجاوزها .

وكان القرار .. بل قل القرارين :

لا محرقة ولا تدخين من اليوم .. سواء مع الكتابة أو مع غيرها .. وإذا كان عدم الكتابة بالنسبة لى يعنى الموت .. فمعركتى القادمة هى تحريرى للكتابة تماماً من التدخين .. ولتكن واحدة مع معارك الحرية الكثيرة التى خضتها عبر مسيرة الحياة !

* * * * *

في تلك الفترة بالذات ، جاءتني دعوة من أحد المسارح الكبيرة لحضور افتتاحية مسرحية جديدة يقوم ببطولتها فنان شهير موهوب هو في نفس الوقت صديق وأخ ودود .. لبيت بالطبع الدعوة .. كان الافتتاح رائعاً اكتسب روعته من عظمة أداء البطل لدوره .. وأنا أعانقه مهنئاً بعد العرض أحسست بأنفاسه متسارعة من فرط ما بذل من مجهود . برقت الفكرة في ذهني .. أن أقدم في المجلة صورة قلمية لشخصه ولقصة حياته وتاريخه الحافل بالعطاء الفني ، أبديت له الرغبة فوافق مرحباً . والتقينا في بيته على شاي المساء !

وإذا به يبوح لي من الدقائق الأولى بسر خطير ليس للنشر : أنه يعاني من أزمة صحية باتت تهاجمه بعنف وتهدده في فنه وفي كل وجوده !! .. وأردف قائلاً كاشفاً السر ، أنه من سنوات شبابه الأولى وهو يتعاطى « الأفيون » . وقد لازمته العادة حتى كبر وإشتهر وسطع نجمه .. ومع هذا لا يجرؤ على الدخول إلى خشبة المسرح ومواجهة الجماهير إلا إذا كانت القطعة إياها قد ذابت مع الشاي تحت لسانه وحدثت له الصهللة التي سرعان ما ينقلها إلى الجمهور ! وبحكم طبيعته الصريحة كشف سره للطبيب ، فإذا بالطبيب بعد الكشف وإجراء مختلف التحاليل يعلنه بخطورة حالته .. وأن أي دواء ينصح به الآن هو عبث ما لم يكف ؟ أولا وبشكل حاسم قاطع ، عن ذلك الإدمان .. وإن كان ينصحه بأن يلجأ في نفس الوقت إلى نوع من البديل المخفف ، حتى يتجنب الآثار التي قد تنجم عن الانقطاع

الفجائي عن عادة مزمنة ألفها جسمه وجهازه العصبى لعشرات السنين : كأساً صغيرة من النبيذ !

استوقفتني الفكرة .. راقت لى .. رأيت أنها تناسبنى أنا الاخر أن أهيىء نفسي وأحشدها للكتابة بكأس صغيرة من النبيذ .. واستغنى بذلك تماماً عن السيجارة بمفعولها الرهيب .

واستهوتني التجربة .. وقررت دخولها .. !!

الغريب أني فى نفس تلك الفترة أيضاً .. التقيت بأحد الكتاب الروائيين العرب الكبار .. جاء ليقضى عدة أيام فى القاهرة ، وإذا بى فى إحدى السهرات أعرف منه أنه أقلع عن التدخين نهائياً منذ سنوات .. وحينذاك سألته بلهفة : والكتابة ؟! ماذا فعلت معها من غير السيجارة !

قال : استبدلتها بالنبيذ .. (تذكرت صاحبى فنان المسرح) .

قلت : وما حصاد التجربة ؟!

قال : أعظم ما كتبت فى حياتى ، هو ما كتبته بلا سيجارة .. فقط كأس النبيذ .. (وابتسم) لا تنس أن النبيذ هو شراب الأنبياء .

وتركت نفسي للتجربة .. فى أول الأمر بحذر وهدوء .. ثم إذا بدبيب الدراما يأخذ فى التصاعد وتلوح من بعيد نذر المأساة .. ذلك أنني - بحكم تركيبتي - لا أعرف الوسط فى الأمور .. ولم تعد

الكأس الصغيرة تكفينى ، تماماً مثلما كان يحدث لى مع السيجارة .. بل وجدتنى انتقل من صنف النبيذ إلى أصناف أخرى طلباً لزيادة المفعول .. وإذا بالحقيقة المأساوية تتضح لى : إننى لم أتحرر كما كنت فى البدء أتوهم بل دخلت فى عبودية جديدة .. وسرعان ما وقعت الواقعة حين رأيت العالم من حولى يتشح بالضباب المعتم الثقيل .. وغابت فى عينى تفاصيل البشر والأشياء .. ولم أفق إلا وأنا فى غرفة العناية المركزة من جديد !

* * * * *

ها قد وصلنا إلى ختام المعركة .. ختاماً أخذ ويا للغرابة شكل وطعم الدراما الساخرة .. وأنا أفتح عينى وأجذب أنفاسى بعد اجتياز المرحلة الحرجة من الأزمة ، إذا بى أجد الطبيب الذى يعالجنى هو نفسه الطبيب الذى حذرنى من قبل بكلمات قاطعة : « ولو عدت للتدخين ، فلا تعد إلى .. ابحث لك عن طبيب آخر » !

أرخيت نظراتى خجلاً .. يغمرنى الإحساس العميق بالذنب .. بينما هو ينظر لى باسماً لى مربتاً على كتفى برفق وحنان !!

هل أتأسف له أم لنفسى ؟!

وهل هناك ثمة جدوى من الأسف ؟!

وفى سرى : قسماً لو خرجت من هنا سائراً على قدمى فلن أعود إليه أبداً إلا كزائر وصديق .. وغفرانك أيها الملاك الكريم الطيب !

* * * * *

الآن .. وبعد أربع سنوات من تجاوز الهزيمة وتحقق النصر .. عبر المعاناة والألم .. بعد أن التأمت الجراح تاركة وشمها الثقيل المعتم على جدران القلب .. فعلاً لا رمزاً .. وشماً اسمه الكولسترول وضيقاً فى سيد الشرايين .. الشريان التاجى !

أتذكر كلمات لنيتشه : « لقد كتبت كتاباتى بدمى » !

أحياناً يخطر لى أنه ، كما أن فى تركيبتنا غريزة حب البقاء ، تكمن أيضاً فينا غريزة حب الموت !

أقولها الآن من الأعماق : طوبى لمن استبسل وخاض معركة تحرير الجسد والروح من كل آفة تستعبدهما ! .. ولكن ما أقل هؤلاء !!

يقول أبو الروائيين « ديستوفسكى » : « الحرية فى صميمها عبء ، ولهذا فإن الناس يتنازلون عنها كى يخففوا عن أنفسهم هذا العبء » !

ما أكثر ما تنازلت واستسلمت لتيار العبودية ، الآن أرانى محلقاً على معراج الصعود أنشد من النجوم الإجابة الشافية الحقة .

ها قد أصبحت بلا سيجارة ولا كأس ، ومع هذا فالروح ساطعة ومحتشدة ، والقلم يجرى منى على الورق ، كأنه هو الذى يستكتبنى ، ولست أنا الذى أكتب به .

أكتب وأكتب وأكتب .. تتجلى لى الحقيقة بالكامل أخيراً .. أتشبث بها وأرفعها شعاراً للعالمين : ألا نمسك بأقلامنا ، إلا إذا كنا مدفوعين بقضية إنسانية تؤرقنا وتستصرخنا للتعبير عنها .. قضية فى صميمها هى حفاظ على الهوية وعلى الإيمان وعلى التاريخ والجوهر من أى عدوان يبغى سلب جماليات الحياة منا .. ألا نكتب إلا حين تكون الفكرة قد نضجت تماماً واستوت ، مثل جنين اكتمل نموه وأصبح خروجه من الرحم محتوماً .. أن تأخذ الكتابة شرف وقداسة الولادة .. حينذاك لا نجد أنفسنا فى حاجة إلى سيجارة أو كأس نلتمس منهما الإذن لنكتب .

ذلك هو التوهج الأعظم .. تتدفق منا الكلمات فى يسر وسلاسة.

وما أجمل – بالتجربة – أن يحدث هذا مع طزاجة ونقاء البكور .. والصبح .. يتنفس .. والمعانى والملامح تتكشف أسرارها وتفاصيلها المبهرة لحظة بعد لحظة .. حينذاك يهدى الكاتب للعالم مع شروق الشمس أجمل جواهره .. سعيداً بأنه قدم أعظم وأغلى ما عنده ، دون أن يكون قد أشعل المحرقة فى جسده وروحه .

ندب على الأرض بنشاط .. نحلق بأفراح الولادة والخلق .. نغنى لانتصارنا في واحد من أخطر معارك الحرية .

.ووداعاً يا من كنت غرامى .

وداعاً .. وإلى الأبد .

الفهرس